HAMED M. ALSHARIF

حامد محمد الهادي الشريف

أحوال غير المسلمين في بلاد الشام حتى نهاية العصر الأموي

أحوال غير المسلمين في بلاد الشام حتى نهاية العصر الأموي

حامد محمد الهادي الشريف



أحوال غير المسلمين في بلاد الشام حتى نهاية العصر الأموي

HAMED M. ALSHARIF

دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع
عمان - الأردن - وسط البلد - شارع الملك حسين - مقابل مجمع الفحيص التجاري
هاتفاكس: 6626 462 - 4185 461 6 962+ ص.ب: 520646 الرمز البريدي: 11152
www.yazori.com E-mail : info@yazori.com

احوال غير المسلمين في بلاد الشام حتى نهاية العصر الأموي

حامد محمد الهادي الشريف

رقم الإيداع المتسلسل لدى دائرة المكتبة الوطنية : 2007/6/1644

الطبعة العربية : 2007

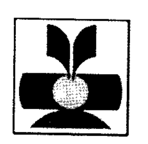
عمان – الأردن

الناشر : أمانة عمان الكبرى

التصميم والإخراج : دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع

تصميم الغلاف :

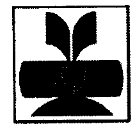
info@yazori.com



اليازوري

احوال غير المسلمين في بلاد الشام حتى نهاية العصر الأموي

حامد محمد الهادي الشريف



اليازوري

بسم الله الرحمن الرحيم

"انّ الذين آمنوا والذين هادوا
والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم
الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم
ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون"

(البقرة: ٦٢)

فهرس المحتويات

المقدمة

هذا الكتاب محاولة جادة لدراسة أحوال أهل الذمة (النصارى، اليهود، السامرة) في بلاد الشام في العصر الأموي من حيث العلاقات المتبادلة التي رسمت أدوارهم الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في ظل الدولة العربية الإسلامية على مدى قرن من الزمان. وهو من المواضيع الهامة والحساسة التي لم تدرس دراسة موضوعية جادة حتى الآن. فقد كان تركيز الكتب والأبحاث منصباً على الفتوحات والمعارك والفتن، أو على حياة الحكام الشخصية.

وقد رأيت أنه من الضروري تسليط الضوء على هذه الفترة، لاستقصاء أحوال أهل الذمة في ظل الدولة الأموية، وإبراز دورهم في بناء الحضارة العربية الإسلامية من خلال اعتماد الدولة الأموية عليهم في الإدارة والجيش والدواوين والضرائب، ومن خلال المعاملة المتصفة بالعدل والمساواة مع بقية أفراد الدولة من حيث التسامح الديني والمذهبي وحرية الأنشطة والإبداع التي مكنتهم من المساهمة العلمية الفاعلة في الطب والتعليم والفلسفة والتشجيع لشعرائهم المبدعين بتقريبهم من الأمراء والخلفاء والتسهيل لتجارهم وصناعهم وأصحاب الحرف الأمر الذي مهد الطريق للهيمنة الاقتصادية والمالية للعرب المسلمين على أسواق العالم في ذلك الوقت.

وقد واجهتني العديد من الصعاب كان أولها صعوبة الحصول على المعلومات كما أن تفاوت الآراء بين المؤرخين جعل من الصعوبة بمكان الأخذ برأي دون الآخر، فضلا عن قلة المادة بل وانعدامها في بعض الجوانب. بالإضافة إلى طبيعة البحث الذي يفرض تناول فترة واسعة لتكوين وحدة موضوعية.

يحتوي هذا الكتاب على أربعة فصول وفروع خاصة بكل فصل، هذا بالإضافة إلى فصل خاص بتحليل ودراسة المصادر والمراجع ويلي هذه الفصول الخاتمة وقائمة بالمصادر والمراجع.

أما الفصل الأول وهو بعنوان: "طبيعة العلاقة بين أهل الشام والدولة العربية الإسلامية أثناء الفتح الإسلامي وبعده" فقد قسم إلى خمسة أقسام رئيسية: يتناول القسم الأول جغرافية بلاد الشام بحدودها وأقسامها الطبيعية، وعناصر السكان في بلاد الشام قبل الفتح الإسلامي. وفي القسم الثاني تم بيان علاقات السكان بالدولة البيزنطية قبل الفتح الإسلامي باعتبارها الدولة الحاكمة. أما القسم الثالث فيختص بالحديث عن علاقات أهل الشام السلمية والحربية بدولة المدينة المنورة في عهد الرسول (ص) باعتبارها العلاقات التي مهدت الطريق للفتوحات الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين. وبالتالي كان طبيعياً أن يدور القسم الرابع عن الفتوحات الإسلامية والمواقف المتباينة لأهل بلاد الشام من هذه الفتوحات. أما القسم الخامس فيوضح قبول بعض من أهالي بلاد الشام للحكم العربي الإسلامي، ودخولهم في عقد الذمة (عهد الصلح) مع المسلمين،

موضحاً أهمية الأمان والحرية والحقوق والواجبات التي ترتبت على عقد الذمة، وخاصة الجزية والخراج التي توجب على أهل الذمة الوفاء بها وحماية الدولة لهم.

في الفصل الثاني من هذا الكتاب وهو بعنوان: "الرعايا غير المسلمين في الدولة الأموية في بلاد الشام"، فقد قسمته إلى ثلاثة أقسام: يتناول القسم الأول الحديث عن النصارى من حيث مناطق استقرارهم، وطوائفهم ودور عبادتهم. أما القسم الثاني فكان عن اليهود من حيث مناطق استقرارهم وطوائفهم ودور عبادتهم. وقد آثرت في القسم الثالث الحديث عن السامرة من حيث مناطق استقرارهم وطوائفهم ودور عبادتهم.

أما الفصل الثالث فكان بعنوان: "علاقة أهل الذمة بمؤسسات الدولة الأموية ببلاد الشام" وقسم أيضاً إلى ثلاثة أقسام: تناول القسم الأول علاقة أهل الذمة بالإدارة، موضحا استعانة الأمويين بهم في المجالات الإدارية كالكتابة والدواوين. و اختص القسم الثاني بالحديث عن الجيش، موضحا أن الجيوش الأموية لم تكن من عناصر عربية إسلامية فحسب، بل شارك فيها أهل الذمة من جراجمة ونبط وخاصة في الأساطيل الحربية. وتناول القسم الثالث الضرائب التي كان أهل الذمة يدفعونها لبيت مال الدولة الأموية من جزية وخراج وعشور، موضحا مقاديرها والتعديلات التي طرأت عليها وتنظيماتها في زمن الدولة الأموية.

أما الفصل الرابع فقد جاء بعنوان: "دور أهل الذمة في الحياة العامة في بلاد الشام في العصر الأموي". وقسم الفصل إلى ثلاثة

أقسام: تناول القسم الأول نشاطات أهل الذمة الاقتصادية في المجال الزراعي ثم الصناعي الحرفي والتجاري. وتعرض القسم الثاني لعلاقاتهم الاجتماعية من حيث اعتبارهم رعايا للدولة العربية الإسلامية والمحافظة على أرواحه وحرية معتقداتهم وحرمة أشخاصهم ومنازلهم ودور عبادتهم واشتغالهم بالوظائف العامة وتمتعهم بحرية العمل والسفر والإقامة. و استعرض القسم الثالث نشاطاتهم الثقافية. فأوضح دورهم البارز في الترجمة والفلسفة وممارسة الطب والكيمياء والأدوية، وأخيراً أبرز المبحث إبداعهم الشعري الذي أوصل بعض شعرائهم كالأخطل إلى أعلى درجات الحظوة عند الخلفاء الأمويين حيث اعتبروه شاعر بني أمية بلا منازع.

أما في الخاتمة، فقد عرضت نتائجي التي خلصت إليها بعد هذه الدراسة المستفيضة ووضعت التحليل - الذي اعتقد من وجهة نظري المتواضعة جداً أنه مناسب -.

الفصل الأول

طبيعة العلاقة بين أهل الشام والدولة العربية الإسلامية أثناء الفتح الإسلامي وبعده

أولاً: جغرافية بلاد الشام

١: حدود بلاد الشام.

باستثناء الحد الغربي لبلاد الشام المتمثل في البحر الابيض المتوسط، وهو حد طبيعي متفق عليه فان الجغرافيين الاوائل لم يتفقوا على حدود دقيقة في الجهات الثلاث الأخرى. ففي حين ذكر ابن خرداذبة كور بلاد الشام ومدنها (١) فإن اليعقوبي تناول اجناد الشام ونطاق كل جندٍ منها(٢) ومن ذكرهما لمواقع المدن أو توضيح امتداد الأجناد يمكن لنا محاولة التعرف على حدود الشام في زمنهما. وفي حين جعل البكري مدينة العريش آخر الشام من جهة مصر(٣)، فإن اليعقوبي ذكر أن رفح تشكل الحد بين مصر والشام(٤).

وكان الاصطخري أول الجغرافيين الذين اعتبروا بلاد الشام وحدة جغرافية متميزة. فقد جعل الفصل الخامس من كتابه (المسالك والممالك) باسم (أرض الشام)(٥)، كما أنه رسم خارطة لبلاد الشام كما رآها(٦).

وقد أوضح الاصطخري في كتابه حدود بلاد الشام: (أن غربي بلاد الشام بحر الروم، وشرقيها البادية من أيلة إلى الفرات. وجعل المدن التالية على الحدود الشرقية: أيلة، معان، سلمية، تدمر، الخناصرة،

بالس جسر منبج، سميساط فملطية. وذكر أن حد الشام مع بلاد الروم (الثغور الشمالية) يبدأ بملطية في أقصى الشمال الشرقي ويتجه غرباً إلى الحدث فمرعش فالكنيسة فالهارونية وعين زربه والمصيصة وأذنه إلى طرسوس على ساحل بحر الروم. أما غرب خط رفح - أيله فنواحي مصر (٧).

وكذلك فعل المقدسي فاستعمل مصطلح (اقليم الشام) قاصداً به وحدة جغرافية متميزة. وهو أول من كتب عن التكوين الطبيعي لاقليم الشام (٨).

ولم يكتف ابن حوقل برسم خارطة لبلاد الشام مبيناً فيها الحدود كما كانت عليه في وقته (أواخر ق٤ هـ/ ١٠م) بل ذكر حدودها؛ غربيها بحر الروم، وشرقيها البادية من أيلة إلى الفرات، ثم بمحاذاة الفرات حتى ملطية. وقد جعل المدن والمواقع التالية على طول الحد الشرقي: أيلة، معان، تدمر، سلمية، الخناصرة، بالس، ثم بمحاذاة نهر الفرات حتى ملطية فاعتبرها كالاصطخري آخر الحد الشمالي الشرقي مع بلاد الروم (٩).

أما الجغرافيون المتأخرون (في القرنين السادس والسابع الهجريين) فقد تناول بعضهم حدوداً عامة لبلاد الشام كياقوت الحموي إذ يقول: (أما حدها فمن الفرات إلى العريش المتاخم للديار المصرية، وأما عرضها فمن جبل طئ من نحو القبلة إلى بحر الروم) (١٠). وذكر بعضهم تفاصيل الحدود كأبي الفداء إذ يقول: (والذي يحيط بالشام من جهة الغرب بحر الروم من طرسوس في بلاد الأرمن إلى رفح

الواقعة في أول الجفار بين مصر والشام. ويحيط به من جهة الجنوب حتى يمتد من رفح إلى حدود تيه بني اسرائيل إلى ما بين الشوبك وأيله إلى البلقاء. ويحيط به من جهة الشرق حد مشاريق حلب إلى بالس، ويحيط به من جهة الشمال حد يمتد من بالس مع الفرات إلى مرعش إلى بلاد سيس إلى طرسوس إلى بحر الروم حيث ابتدأنا) (١١).

وما أوردناه يوضح التباين في تعيين حدود بلاد الشام بين ذكر مدنها ومحاولة رسم خارطة لها كما فعل ابن خرداذبة والاصطخري من الجغرافيين الأوائل، وبين ذكر حدود عامة عند ياقوت الحموي.

ويجدر بنا أن نلاحظ عدم ذكر ملطية بين الثغور عند أبي الفداء. ذلك أنها كانت تخضع للأرمن في زمانه وهذا يقودنا إلى توضيح تغير الحدود الشمالية والسواحل الشامية المصرية على الدوام، تبعاً لما تقرره نتائج المعارك المتواصلة بين المسلمين والبيزنطيين، ففي عصر الخلفاء الراشدين لم تتجاوز السيطرة العربية انطاكية وشمال حلب فقد ذكر البلاذري: (كانت ثغور المسلمين أيام عمر وعثمان (ر.ض) وما بعد ذلك: أنطاكية وغيرها من المدن التي سماها الرشيد (العواصم) فكان المسلمون يغزون ماوراءها كغزوهم اليوم ما وراء طرسوس. وكان فيما بين الاسكندرية وطرسوس حصون ومسالح الروم) (١٢).

وافتتح معاوية بن أبي سفيان ملطية ومرعش اثناء ولايته على الشام. ومرعش هذه وسطى مدن الحدود بين ملطية وطرسوس (١٣). وفي أواخر العصر الأموي أصبحت ملطية مدينة عربية مأهولة، إذ (أخلى عمر بن عبد العزيز طرندة وأسكن أهلها ملطية) (١٤). ونجح

عبدالله بن عبد الملك في دخول درب أنطاكية: (و أتى المصيصة فبنى حصنها على أساسه القديم ووضع سكاناً من الجند.... ولم يكن المسلمون سكنوها قبل ذلك)(١٥) وكانت الحصون بين المصيصة وأنطاكية تتعرض لهجمات البيزنطيين المضادة حتى أن عمر بن عبد العزيز حاول هدمها حتى لا يحاصرها العدو: (فأعلمه الناس أنها إنما عُمِرت ليدفع من بها الروم عن أنطاكية، وأنه إن أخربها لم يكن للعدو ناهية دون أنطاكية، فأمسك)(١٦).

ومع ذلك يستطيع الباحث القول بأن حدود الشام (و إلى حد كبير) كانت حدوداً طبيعية. فشكل البحر الابيض المتوسط حدها الغربي، بينما شكَلت بادية الشام ونهر الفرات حدها الطبيعي الشرقي، بينما كانت الحصون عند جبال طوروس حدها الشمالي، وصحراء سيناء -أيله- البادية الحد الطبيعي الجنوبي. وكما نرى فإنها تكاد تطابق حدود بلاد الشام الحالية.

٢: أقسام بلاد الشام الطبيعية

كان المقدسي من أوائل الجغرافيين الذين كتبوا عن التكوين الطبيعي لإقليم الشام فقال: (ووضع هذا الاقليم ظريف، فهو أربعة صفوف: فالصف الأول يلي بحر الروم وهو السهل...... والصف الثاني الجبل، مُشجّر ذو قرى وعيون ومزارع...... والصف الثالث: الأغوار...... والصف الرابع: سيف البادية، وهي جبال عالية معتدلة مع البادية، ذات قرى وعيون وأشجار....)(١٧).

وكان أبو الفداء قد نبّه إلى التطاول في شكل بلاد الشام أيضاً(١٨). وحديثاً قدّر لامنس ان بلاد الشام مستطيل طويل الضلعين من الشرق والغرب، أي من جبال طوروس إلى سيناء فيصل إلى ثمانمائة كيلو متر، بينما لا يزيد عرضه في الشمال والجنوب أي من الساحل إلى البادية عن مائة وخمسين كيلو متراً(١٩). هذا بينما يتفق الجغرافيون المعاصرون على خمسة أقسام طبيعية متمايزة لبلاد الشام وهي من الغرب والشرق:

١) السهول الساحلية المحصورة بين البحر المتوسط والجبال الغربية، وهي سهول ضيقة إجمالاً تضم جنوب حيفا بفلسطين(٢٠).

٢) الجبال الغربية: تبدا بجبال اللكام شمالاً وتنتهي بجبال الخليل بفلسطين جنوباً(٢١).

٣) الحفرة الإنهدامية السورية / الافريقية: من بحيرة العمق شمالاً وحتى أيله (العقبة) جنوباً قد أشار إبن حوقل إلى الغور: (وقد سميت المنطقة بين الحولة وأيله بالغور لأنها بقعة بين جبلين وبعض سهل الغور من الاردن وبعضه من فلسطين)(٢٢).

٤) الجبال الشرقية: تقابل الجبال الغربية في الجانب الشرقي من حفرة الانهدام حيث تبدأ بجبل الأكراد شمالاً، وتتحول في شرق الأردن إلى هضبة مرتفعة، من أهم معالمها الجبلية جبال عجلون والبلقاء ومؤاب، وتنتهي بجبال الشراه ذات الامتداد إلى جبال سراه شبه جزيرة العرب(٢٣).

٥) الهضاب والسهول الداخلية، والبادية: تبدأ بسهول في حمص وحلب

والخابور وغوطة دمشق، وإلى الشرق منها منطقة شبه صحراوية لا تخلو من النتوءات البركانية التي تتخللها الأودية الجافة والسبخات، وتتجه الاودية الصحراوية نحو الفرات شرقاً (٢٤).

٣: عناصر السكان في بلاد الشام (قبل الفتح الإسلامي)

السكان الأصليّون:

بلاد الشام هي الإمتداد الطبيعي والبشري لشبه جزيرة العرب. لذلك تدفقت إليها الهجرات الساميّة الكنعانيّة والآراميّة منذ الألف الثالثة قبل الميلاد. وأقاموا حضارات عريقة كحضارة الفنيقيين والأنباط. وقد أجمع الكتّاب البيزنطيون على تعريف جميع العرب في سهول سوريا وبين الرافدين باسم سكنتاي أو سراكيني وكتب إميانوس مارسيلينوس: (سكنتاي هم أصل العرب) (٢٥).

ويعتقد الباحث بأن هؤلاء النبط هم بقايا الشعوب القديمة الذين أشار إليهم المسعودي (٢٦)، بأنهم هم النبط أو السريان الذين يسكنون الجزيرة أو الشام أو العراق بالإضافة إلى أحفاد الآراميين هؤلاء. دخل اليهود إلى بلاد الشام في الألف الثاني قبل الميلاد بقيادة أحفاد موسى (عليه السلام) الذين عبروا إلى فلسطين، وسيطروا على أجزاء منها قبل أن تتعرض دولتهم للدمار، وقبل أن يتعرض اليهود للمذابح والسبي والتشريد المتكرر على يد نبوخذ نصر والآشوريين والرومان (٢٧). واشترك السامريون مع إخوانهم اليهود في الكثير من المحن وكان مركزهم كما هو اليوم في نابلس (٢٨) ومنطقة السامرة.

وبينما كان البيزنطيون هم الحكام والنبلاء في بلاد الشام قبل الفتح الإسلامي يسكنون مدن الشام الهامة كدمشق وبيت المقدس، وتعج بهم مدن الساحل كأنطاكية وصور وقيسارية وملأت جيوشهم القلاع والحصون الحدودية وامتلك الإقطاعيون منهم الأرياف (٢٩)، كانت القبائل العربية قد تدرجت في استقرارها ببلاد الشام من قبائل قديمة كتنوخ وقضاعة وغسان التي سكنت المدن والأرياف وتحالفت مع البيزنطيين واتبعت النصرانية، وتلتها قبائل وضعت لنفسها قدماً في حواضر مدن الشام وأخرى في البادية مثل كلب وجذام وتغلب. وقد تفاوتت نسبة التنصر بين أفرادها تبعاً لتفاوت علاقاتها مع البيزنطيين. وأما الدرجة الثالثة فهي للقبائل التي كانت منازلها داخل شبه جزيرة العرب وعلى حدود الشام مثل عذرة وفزارة وبلي وبلقين وبعض جذام وكانت علاقاتها بالبيزنطيين ضعيفة ونصرانيتها أقل رسوخاً (٣٠).

بالإضافة إلى هؤلاء اقتصر وجود بقايا آخر الغزوات الفارسية على مناطق محدودة كبعلبك (٣١). أما الجراجمة فكانوا يسكنون جبال اللكام وهم نصارى على المذهب الملكاني وعاصمتهم تدعى الجرجومة (٣٢).

ثانياً: علاقات سكان بلاد الشام بالدولة البيزنطية قبل الفتح الإسلامي

١ - علاقات نصارى بلاد الشام بالدولة البيزنطية:

بلاد الشام مهد النصرانية. وقد انتشرت النصرانية في أجزاء كثيرة منها قبل أن يعلن الامبراطور قسطنطين حمايته للنصرانية

في القرن الرابع الميلادي، وقبل أن تصبح النصرانية ديناً رسمياً للدولة البيزنطية(٣٣). ومع ذلك فإن الوثنية كانت موجودة في القرن السادس الميلادي في بعلبك والرها وأنطاكية. والدليل على ذلك اصدار الامبراطور جوستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥م) أوامر بحرمان الوثنيين من التدريس والوراثة والوصية. كما أن القبائل العربية في بلاد الشام لم تتنصر كلياً(٣٤). وقد كان لكنيستي أنطاكية (يونانية اللغة) والرها (سريانية اللغة) دورٌ عظيمٌ في نشر النصرانية في ربوع الشام. لكن هذا الازدواج الذي كان في أساسه لغوياً أصبح فيما بعد خلافاً مذهبياً. دار الجدل والصراع فيه حول طبيعة المسيح(٣٥) فاتبعت كنيسة أنطاكية المذهب الملكاني (المذهب الرسمي للدولة البيزنطية) واتبعه معها سكان القدس وبعض نصارى مدن الشام.

ولكن معظم سكان الشام من نبط وعرب اتبعوا كنيسة الرها السريانية اللغة ومذهب الطبيعة الواحدة للمسيح (عليه السلام) سواء منهم النساطرة واليعاقبة(٣٦). لذلك لقي أتباع هذا المذهب الاضطهاد من قبل الأباطرة البيزنطيين، تؤيدهم في ذلك كنيسة القسطنطينية المتعصبة للارثوذكسية. فمثلاً نفى الإمبراطور بوسطين الأول (٥١٨ - ٥٢٧م) ما لا يقل عن خمسين أسقفاً، وشتت الرهبان في بلاد الشام، وأغلق أديرتهم وعاقب الناس الذين عارضوا اجراءاته بالقتل والسجن والنفي(٣٧). أما الإمبراطور فقاس (٦٠٢ - ٦١٠م) فمنع اتباع مذهب الطبيعة الواحدة من عقد اجتماعاتهم الدينية، واستولى على كنائسهم وأعطاها للارثوذكس الملكانيين(٣٨)، بينما قام الامبراطور تيبريوس باعتقال المنذر ملك الغساسنة عام ٥٨١م ونفاه إلى جزيرة صقلية.

واضطهد الغساسنة لكي يتحولوا إلى المذهب الملكاني(٣٩) مما دفعهم للقيام بثورة ضد السلطة البيزنطية وهزموا أحد جيوشهم وحاصروا بصرى بقيادة أبناء المنذر(٤٠). وحاول الامبراطور هرقل (٦١٠هـ - ٦٤١م) إيجاد صيغه توفيقية تزيل أسباب الخلافات المذهبية بين المذاهب المتعارضة، لكن الفتح الإسلامي لبلاد الشام جعل هذه المحاولات أمراً لا قيمة له لأن الفاتحين منحوا جميع أصحاب الديانات والمذاهب المختلفة في بلاد الشام حرية دينية تامة(٤١).

٢ - علاقات اليهود بالدولة البيزنطية قبل الفتح الإسلامي:

دأب اليهود بعد عودتهم من السبي البابلي على الثورات ضد الدولة الرومانية. كما فعلوا بقيادة يهوذا الجليلي عام ٦٦م احتجاجاً على محاولة إحصائهم. ونجم عن هذه الثورة اجتياح الرومان بقيادة تيطس اورشليم عام ٧٠م واحراقها مع هيكلها وتشتيت اليهود في كل مكان في فلسطين والشام والعراق والصحاري العربية(٤٢).

واشتدت العداوة بين اليهود والرومان البيزنطيين، بعد اعتماد النصرانية ديناً رسمياً للدولة البيزنطية في القرن الرابع الميلادي، بسبب عداوة اليهود التاريخية واضطهادهم للمسيح (عليه السلام) وأتباعه(٤٣). فحرموا من الوظائف المدنية والعسكرية عام ٤٢٨ ولم يسمح لهم ببناء كنس جديدة أو اقتناء رقيق نصرانيين، وحرم عليهم اختتان أي شخص غير يهودي. فمن فعل ذلك صودرت املاكه ونفي نفياً مؤبداً. وكانوا يُطالبون بتسديد كل نقص في الضرائب المحلية بعد إجبارهم على المشاركة في مجالس المدن وفي جمع الضرائب(٤٤).

ومن ثوراتهم العنيفة ثورة ٥٧٨م عندما اتحدوا مع السامريين واتخذوا من نعران (قرب أريحا) وبيت رملة (عبر الأردن) قاعدتين للهجوم على المناطق المجاورة. ولم ينجح البيزنطيون في القضاء على هذه الثورة إلا بثمن باهظ في الأرواح، وتخريب واسع للممتلكات. كما اضطهدهم نصارى أنطاكية في أوائل حكم موريقي بتهمة تدنيس أيقونة مريم العذراء، وحاولوا طردهم من المدينة، الأمر الذي لم يتحقق إلا في أيام الإمبراطور فقاس (٦٠٢ - ٦١٠)(٤٥) ويذكر ديونيسوس التلمحري أن الإمبراطور فقاس هذا أمر بتعميد اليهود، أي تحويلهم قسراً إلى النصرانية: (وأجبر فوقا (فقاس) جميع اليهود الذين كانوا تحت حكمه على اقتباس سر المعمودية، وانفذ جورجي الحاكم إلى مدينة اورشليم و إلى سائر ارض فلسطين ليحمل اليهود قاطبة على ممارسة المعمودية...)(٤٦) وثار اليهود بسبب هذا الاضطهاد في زمن فقاس عام ٦٠٨م وعمت ثورتهم سوريا وفلسطين، وجرى القتال في القدس ومدن أخرى، وخربت عدة مدن. وعادوا للثورة عام ٦١٠م في أنطاكية بعد اضمحلال شأن حزب الخضر. ولكن أبشع انتقام لهم من النصارى كان بعد إخفاق جيوش هرقل (٦١٠ / ٦٤١م) دون أدنى مقاومة إذ انخرط آلاف اليهود في الجيش الفارسي وعمل آخرون أدلاء له. وقد استباحوا اورشليم ثلاثة أيام يذبحون فيها النصارى ويحرقون كنائسهم وينهبون ممتلكاتهم وفعلوا ذلك في مدن أخرى، واعملوا سيوفهم في النصارى الأسرى(٤٧).

وفي عام ٦٣٠م استرد هرقل الصليب المقدس بعد انتصاراته على الفرس ودخوله عاصمتهم. وفي طريق عودته استقبله يهود الرها بالهدايا

فعفا عنهم وأعطاهم الأمان. كما استقبله يهود طبريا والناصرة والجليل فقبل هداياهم ومنحهم العفو عن جناياتهم. لكنه اضطر لنقض العفو والأمان الذي أعطاه لهم بسبب شكاوى النصارى وبخاصة الأساقفة وفعل ما يرضيهم، فقتل من اليهود حول بيت المقدس والجليل مالا يحصى عدده، وحرّم عليهم الدخول إلى منطقة بيت المقدس يتراوح قطرها بين ٣-٥ أميال. وبسبب المذابح فر كثيرٌ من اليهود إلى الجبال والأودية أو عبروا الفرات إلى بلاد فارس(٤٨).

٣ - علاقات السامرة بالدولة البيزنطية قبل الفتح الإسلامي:

يدعي السامريون بأنهم ينتمون إلى قدماء اليهود الذين كانوا مقيمين في السامرة. ولم يتعرضو للسبي الآشوري عام ٧٢١ق.م وفي رواية للبيروني: (وكانت السامرة أعانوه ودلوه على عورات بني إسرائيل فلم يحركهم ولم يقتلهم ولم يسبهم وأنزلهم فلسطين من تحت يده)(٤٩). وهم يلقبون أنفسهم (بأبناء إسرائيل) بينما يسميهم اليهود (بالسامريين). وكانت طائفة منعزلة عن المجتمع اليهودي بعد رجوع اليهود من السبي. وبنوا لأنفسهم هيكلهم الخاص في نابلس على جبل جرزيم في القرن الرابع الميلادي(٥٠). وكان مركزهم نابلس (كما هو اليوم) وكانوا مجموعة مزدهرة الأحوال في منطقة السامرة ولهم امتداد في قيساريه وبيسان(٥١)، حيث عملوا في الزراعة والتجارة والحرف المتنوعة. ولم يمنحهم الرومان الامتيازات التي منحوها لليهود. فقد منعوا في القرن الثالث الميلادي من ختان أولادهم، وأجبرهم الإمبراطور ديوقلتيان على تقديم القرابين للآلهة كالوثنيين. وقد قام السامريون بثورة زمن الإمبراطور زينون (٤٧٤-٤٩١م) فطردهم من جبلهم المقدس (جرزيم) وبنى فيه كنيسة. وثاروا

أيضاً زمن الإمبراطور جوستنيان (٥٢٧-٥٦٥م) فنكل بهم ودمر معبدهم. وشاركوا اليهود في ثورة عام ٥٧٨م العنيفة حيث أحرقوا الكنائس وذبحوا الحاكم البيزنطي وكانت كلها ثورات بائسة محكوم عليها بالفشل(٥٢). ولم نعد نسمع عن ثورات سامرية في القرن السابع الميلادي، ولا نعرف شيئاً عن موقفهم من الاحتلال الفارسي لبلاد الشام عام ٦١٣/٦١٤م، وقد يدل هدوءهم هذا على عمق الأذى الذي لحق بهم. وكما يقول ابن البطريق أن هذه الثورات والعسف البيزنطي الجائر كاد يؤدي بهم وباليهود إلى الإنقراض(٥٣).

ثالثاً: علاقات أهل الشام بدولة المدينة المنورة (في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم).

١: المجال الدبلوماسي:

وجه الرسول (ص) كتبه ورسله في السنة السادسة للهجرة إلى القبائل العربية المتنصرة في بلاد الشام أسوة بغيرهم من روم وفرس وقبط وأحباش؛ فأرسل شجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شمر الغساني. وقد رفض هذا استقبال الرسول رغم وقوفه ببابه طويلا وقال بعد قراءة الكتاب: (من ينزع مني ملكي؟! أنا سائر إليه..) وكتب إلى الإمبراطور البيزنطي يخبره بما عزم عليه. فكتب إليه الإمبراطور: (لا تسر إليه والهُ عنه، ووافني بإيلياء) (٥٤).

ووجه الرسول (ص) الحارث بن عمير الأزدي إلى ملك بصرى (الغساني)، فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني فأوثقه وضرب عنقه(٥٥). كما أرسل عمار ابن ياسر إلى الأيهم بن النعمان

الغساني(٥٦)، وحديث بن زيد الطائي إلى يوحنا بن رؤية بأيلة(٥٧)، والسائب بن العوام إلى فروة بن عمرو الجذامي عامل الروم على معان(٥٨).

٢: المجال العسكري:

ويقصد به شن الغزوات وإرسال السرايا ضد التجمعات القبلية على حدود الشام، بغرض تهديد قوافل مكة التجارية وإقامة علاقات ودية أو إرهاب القبائل، ونشر الدعوة الإسلامية. وكانت البداية أيضاً في السنة السادسة للهجرة. وأول السرايا كانت بقيادة زيد بن حارثة إلى وادي القرى لمعاقبة جذام ولخم في حسمي لأنها اعترضت طريق دحية بن خليفة الكلبي وهو عائد من عند قيصر الروم(٥٩). وتلتها سرية عبدالرحمن بن عوف إلى كلب في دومة الجندل.وكان من نتائجها إسلام الأصبع بن عمرو الكلبي وكان نصرانيا، واسلام قومه رغم مقاومتهم له في بداية الأمر(٦٠).

ثم سرية كعب بن عمير الغفاري عام ٨هـ إلى قضاعة بذات اطلاع. وقد أصيب معظم أفراد السرية فشق ذلك على الرسول (ص) وهم بالمسير إليهم(٦١).

وأما غزوة مؤتة، فقد كانت أول احتكاك حربي مباشر بين المسلمين والعرب المتنصرة المدعومين بجيوش رومانية، وانسحبت القلة المسلمة أمام الكثرة، وكانت اختبارا للقوى أعطى للمسلمين فوائد كبيرة ظهرت نتائجها عند الفتح الإسلامي(٦٢).

وتلتها سرية ذات السلاسل. وخبرها أن الرسول (ص) علم بأن قضاعة وبلي وعامله وكلب وغسان ولخم وجذام (العرب المتنصرة) قد تجمعت للتوجه إلى المدينة المنورة نفسها فسارع الرسول (ص) بإرسال عمرو بن العاص على رأس الجيش وأمره أن يستعين بالقبائل التي يمر بها ولها علاقات ودية مع المسلمين مثل بني عذره وبلقين. ثم أمدّه بأبي عبيدة لكثرة الجموع التي قابلته. وقد وصلت السرية إلى أقصى بلاد عذرة وبلقين(٦٣).

وكانت غزوة تبوك في السنة ٩هـ/٦٣٠م أكبر الغزوات ضد القبائل المتنصرة في الشام، وقادها الرسول (ص) بنفسه فلم يلق شيئاً. لكنه أقام علاقات ودية مع قبيلة جذام في جنوب الشام وصالح أهل أيلة وأذرح والجرباء ومقنا. وأشار الصحابة على الرسول (ص) بتأجيل التقدم نحو الشام وهو ما أشار إليه في حديثه (ص) فآثر الرجوع إلى المدينة المنورة في هذه السنة حتى يرى رأيا أو يحدث الله له في ذلك مخرجا(٦٤).

وقد أعطت جهود المسلمين الدبلوماسية والعسكرية نتائج مناسبة كان منها قدوم وفود عام ٩هـ من جذام وبلي وقضاعة وعذرة وتنوخ وكلب وغسان بلقين ولخم وبهراء معلنة إسلامها. ولم يقتصر الأمر على إسلام بعض أفراد القبائل العربية القاطنة أطراف الشام. الجنوبية، وإنما امتد إلى عمق بلاد الشام، فأسلم فروة الجذامي عامل الروم على معان (وقتله الروم عقابا له على ذلك، وأسلم زنباع بن روح الجذامي الذي كان على أعشار الروم، والحارث بن قيس الغساني، وفروه بن مجالد من أهل فلسطين ومسروح بن سندر الحمصي، وسيماه البلقاوي

(وكان تاجرا ينقل القمح إلى المدينة المنورة وكان نصرانيا) وأسلم عدي بن حاتم الطائي فولاه الرسول (ص) صدقات قومه طيء، وانقاد له قومه وأسلموا جميعا(٦٥).

كما نتج عن هذه الغزوات حماية طرق التجارة بين الشام والمدينة المنورة، وأصبح معلوما لدى المسلمين أي القبائل المنصرة سيكون أشدها مقاومة للفتوحات مستقبلا كالغساسنة مثلا.

رابعاً: مواقف أهل الشام من الفتوحات الإسلامية

١: مواقف العرب المتنصرة من الفتوحات الإسلامية:

تباين موقف العرب المتنصرة من الفتوحات الإسلامية تبعا لنتائج المعارك، وخاصة الحاسمة منها كفحل واليرموك ودمشق. فكان لسان حال معظمهم يقول: (نكره أن نقاتل أهل ديننا، ونكره أن ننصر العجم على قومنا)(٦٦) والحقيقة أنهم كانوا يخشون الوقوف إلى جانب أحد المعسكرين المتقاتلين ثم يكون هو المعسكر الخاسر، فاعتزلوا القتال حتى ينجلي الموقف، وبعد انتصارات المسلمين المتلاحقة سارع أكثرهم إلى مصالحتهم ولذلك أطلقت عليهم المصادر (المعاهدة)(٦٧) أو مسالمة الشام.

ولعل الصواب لم يجانب الأزدي في تحليله المتأخر (القرن الثالث الهجري) لمواقف العرب المتنصرة من الفتوحات الإسلامية في بلاد الشام حين صنفهم أصنافا ثلاثة(٦٨):

فكان صنف منهم على دين العرب، وخاضوا المعارك إلى جانبهم وهم القبائل القاطنة أطراف الشام الجنوبية من لخم وجذام وبهراء وغسان. فعندما وجّه الصدّيق خالد بن سعيد بن العاص إلى تيماء أمره أن يدعو من حوله للانضمام إليه (عدا المرتدين) وأن لا يقاتل إلا من قاتله، وأن يقيم حتى يأتيه أمره. فأقام، فاجتمع إليه جموع كثيرة(٦٩) ولما تقدم نحو البلقاء لقيته قرب زيزياء جموع من بهراء وكلب وسليم وتنوخ ولخم وجذام وغسان، ولكنهم تفرقوا بعد أن دنا منهم، ودخل من كان تجمع له في الإسلام، ولم تحاربه القبائل المتنصرة، بل هزمه البيزنطيون، فاستمد أبي بكر فاستبدل جيشه كله فسمي (جيش البدل) (٧٠).

وأما جيش عمرو بن العاص الذي تقدم نحو فلسطين فلم يلق مقاومة تذكر منذ خرج من الحجاز، ومر بجميع الأراضي حتى وصل إلى عربه وداثن حيث أوقع بالبيزنطيين بقيادة سرجيوس حاكم غزة هزيمة فادحة(٧١).

وفي معركة فحل أيضاً قاتلت بعض لخم وجذام وعامله وبلقين وبعض غسان وبعض قضاعة إلى جانب المسلمين. ذكر أبوطيبه القيني: (حضر قومي بنو بلقين يوم فحل، وحضرتها لخم وغسان وعامله وقضاعة مع المسلمين فكان من هذه القبائل هناك جمع عظيم قوي بهم المسلمون على عددهم) (٧٢).

فأما الصنف الثاني من العرب المتنصرة، وهم المسالمة الذين أشرنا إليهم وهم المعاهدة أيضاً، فلم يستمروا على حيادهم السلبي بل طوروا

موقفهم إلى التعاون مع المسلمين وتقديم الخدمات المساندة لأنشطتهم الحربية. فعمل بعضهم كعيون استطلاع لأخبار تحركات العدو. فهم الذين أخبروا يزيد بن أبي سفيان خبر جمع هرقل(٧٣) ورتب خالد بن الوليد منهم الجواسيس لنقل أخبار البيزنطيين(٧٤)

ولكن أفضل ما قدموه للمسليمن كان في مجال التموين، فقد صالح أهل بصرى المسلمين على تقديم الحنطة والزيت والضيافة لمدة ثلاثة أيام، وقدم أهل حمص العلف والطعام وأهل حلب الطعام والثياب(٧٥).

وأما النبط فقد صالحوا المسلمين على أن (يصيب المسلمون من ثمارهم وتبنهم)(٧٦) بالإضافة لعمل كثيرين منهم جواسيس للمسلمين على عدوهم. ولم يحجم العرب المتنصرة من هذا الصنف عن العمل كأدلاء للمسلمين في المناطق التي كانوا يجهلونها. وفي إيقاد النار للمسلمين(٧٧).

وعندما انتقلت ميادين القتال إلى شمال سوريا، وأصبح انتصار المسلمين مؤكدا ولا رجعة فيه، تخلى معظم العرب المتنصرة عن حذرهم وحيادهم وكانوا مع المسلمين في حروبهم ضد البيزنطيين، كما فعلت قبائل حاضر قنسرين وغالبيتهم من تنوخ(٧٨)، واخرج أهل حمص إليهم الطعام والعلف، بل إنهم أغلقوا أبواب مدينتهم في وجه البيزنطيين واستعدوا للدفاع عنها ضدهم بعدما ردّ المسلمون ما كانوا أخذوه من الخراج إليهم(٧٩). أما حماة فلم تظهر أدنى مقاومة للمسلمين بينما قلّس أهل معرة النعمان السيوف والرماح بين يدي أبي عبيدة تعبيرا عن فرحهم بقدوم المسلمين(٨٠).

أما الصنف الثالث من العرب المتنصرة فهي التي كانت على النصرانية ولها نية فيها (وإن لم يكن الدين هو الدافع الرئيسي لهذه القبائل) وقد وقفت إلى جانب البيزنطيين اعتقادا منهم بأنهم الجانب الأقوى، ولأنهم أبناء عقيدتهم النصرانية ولأن مصالحهم تقتضي الوقوف إلى جانب البيزنطيين حفاظا على السلطة والمكانة الرفيعة التي منحها البيزنطيون لهم. ويعبر عن هؤلاء الغساسنة الذين يوضح موقفهم أميرهم جبلة بن الأيهم أثناء المفاوضات التي دارت بينه وبين المسلمين بقوله: (أخشى إن تركت حربكم وقتالكم وكانت الدائرة للروم، لا آمن أن يبقوا على بلدي لأن الروم لا ترضى مني إلا أن أكون مقاتلا، وقد أرسلوني على جميع العرب!!) (٨١).

وقد اتضح انحياز هذا الصنف إلى جانب البيزنطيين في معركة اليرموك الحاسمة، وتراوح عدد المشاركين منهم في القتال بين ستين ألفا حسب رواية الواقدي(٨٢) وأربعين ألفا عند ابن أعثم(٨٣) واثني عشر ألفا في رواية ابن عساكر(٨٤).

ويبدو أن رواية ابن عساكر أقرب إلى الصواب وكانت مقاومتهم في المعركة عنيفة كشفت بها ميسرة المسلمين(٨٥) ولذلك كانت خسائرهم فادحة، وهذا يدحض إدعاء رنسيمان بأن العرب المتنصرة (اطلاقا!) انحازت إلى جانب المسلمين(٨٦).

وكانت مقاومة هذا الصنف تضعف تدريجيا كلما اتجهت المعارك إلى شمال سوريا. ومع ذلك ظل الغساسنة يحاربون المسلمين ويحرضون على حربهم كما فعلوا في معارك حلب وقنسرين، ولم يبق أمام أبناء هذه

القبائل النصرانية الموالية للروم وحتى النفس الأخير، وعدم رضاهم بالأقامة في وطنهم تحت حكم المسلمين إلا المضي مع الروم إلى بلادهم والإقامة هناك(٨٧).

٢: مواقف اليهود والسامرة من الفتوحات الإسلامية لبلاد الشام:

اليهود: بدأت العلاقات الإسلامية اليهودية عمليا فور وصول الرسول (ص) مهاجرا وصحبه إلى يثرب (المدينة المنورة). حيث شرع الرسول (ص) بإقامة أسس الدولة الإسلامية فبدأ ذلك بوضع الصحيفة التي نظمت العلاقات في مجتمع المدينة. وضمنت لليهود فيها حريتهم الدينية، وجعلتهم حلفاء للمسلمين يجاربون من يعتدي على مدينتهم معا. ويشاركونهم في الغنم كما يشاركونهم في النفقة. وارتضى اليهود بوجود السلطة عامة يرأسها الرسول (ص) يحتكم الجميع إليه في كل خلاف ينشب(٨٨).

ونقض اليهود العهد تباعا، فأجلى الرسول بني قينقاع إلى دباب وأجلى بعدهم بني النضير إلى أذرعات(٨٩) وصارهؤلاء المبعدين يؤلبون العرب على المسلمين، ويحضونهم على غزو المدينة المنورة. ثم تآمر بنو قريضة أثناء غزوة الأحزاب مع قريش، وكادت خيانتهم للمسلمين أن تقضي عليهم فحكم عليهم بقتل المقاتلين منهم، مما أوغر صدور اليهود وجعلهم أشد عداء وأعظم كيدا، فلم يألوا جهدا في التشهير بالمسلمين ما بين شبه جزيرة العرب والشام حيث منازل أخوانهم من يهود الشام وفلسطين ومنازل يهود قرى شمال الحجاز(٩٠).

ورغم ذلك، فإن هذا العداء يتضاءل عند مقارنته بالعداء الضاري المستحكم بين اليهود والبيزنطيين، والذي شهد الثورات اليهودية العديدة والمذابح الفظيعة والكراهية التي يغذيها رجال الدين من الطرفين.

ولذلك لا نراه أمرا مستهجنا أن يرحب اليهود بمجيء الفتح الإسلامي لبلاد الشام، بغض النظر عما لحق بيهود المدينة والحجاز من قتل وإجلاء فإن الرسول (ص) قد صالح يهودا آخرين (يهود مقنا) الذين دخلوا في عقد الذمة مع المسلمين، وبشروط ميسرة(٩١). ولذا يعتبر تطلع يهود بلاد الشام إلى معاملة عادلة من المسلمين الفاتحين أمرا مسبوقا فهم يحسنون معاملة من يدخل في ذمتهم. ويكفي بالنسبة ليهود بلاد الشام عذرا أن يتحرروا من إضطهاد البيزنطيين حكاما وقساوسة، ليتعاونوا مع الفاتحين المسلمين كجواسيس لهم ذكر البلاذري: (أن أحد اليهود كان دليلا للمسلمين عند فتح قيسارية)(٩٢).

وأورد البلاذري أيضاً أنه عندما ردّ المسلمون على أهل حمص ما كانوا أخذوه من الخراج لأنه بلغهم أن هرقل جمع الجموع، نهض اليهود وقالوا: (والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نغلب ونجهد. فأغلق اليهود وسكان حمص من النصارى الأبواب وحرسوها)(٩٣) وكذلك فعل أهل مدن أخرى صولحت وكانوا نصارى ويهودا.

ولكن يبدو أن تعاون يهود الشام ووقوفهم إلى جانب المسلمين الفاتحين لم يكن فعالا أو متميزا بحيث يعطيهم مكانة متميزة عند المسلمين. ونستدل على ذلك من النص الذي أورده الطبري لصلح إيلياء (القدس) فقد كان من ضمن الشروط التي منحها عمر بن الخطاب

(ر.ض) لأهل إيلياء: (أن لا يسكن بإيلياء أحد من اليهود)(٩٤). ولعل ذلك يعود إلى طبيعتهم الخائنة. حيث أنهم تحالفوا مع الفرس ضد الرومان قبيل دخول الإسلام لبلاد الشام.

السامرة: لم يكن وضع السامريين في ظل البيزنطيين بأفضل من وضع اليهود. فكان أحلك عصر مرّ بالسامرة هو الذي بدأ بهدريان، وانتهى بقضاء الفاتحين المسلمين على سلطان البيزنطيين في الشام. فقد نكّل بهم غير مرة وخاصة في زمن الإمبراطور زينون والإمبراطور جوستنيان، ولذلك لا نعجب من ترحيب السامريين بفتح المسلمين لفلسطين، لأنهم حرروهم كاليهود من اضطهادين؛ استبداد ودموية البيزنطيين الحاكمين، وإرهاب وتعطش الكثير للإنتقام. وهما أمران كادا أن يفضيا بالسامريين إلى الإبادة والانقراض(٩٥).

٣ : موقف سكان الجزيرة من نبط وعرب :

كان أكثر سكان الجزيرة من النساطرة والنبط الذين اتبعوا مذهب الطبيعة الواحدة للمسيح (عليه السلام) من سكان الرها ونصيبين وما حولها ونصارى العرب الموالين للإمبراطورية الفارسية. وأهم القبائل العربية التي كانت تسكن الجزيرة، إياد وتغلب والنمر. وقد ذكر الطبري وقوفهم إلى جانب الروم عند حصار تكريت. وأنهم عندما يئسوا من قتال المسلمين وشعروا بخطر التطويق، قالوا فيما بينهم: (أنتم بين أهل العراق وأهل الشام فما بقاؤكم على حرب هؤلاء وهؤلاء؟) فبعثوا إلى عياض بن غنم بطلب الصلح فرأى أن يقبل منهم(٩٦).

وذكر الواقدي: (كان مع الروم كثير من العرب المتنصرة عند حصار رأس. العين وكانوا بقيادة بني تغلب التي تعد منطقة عانات والحصون المجاورة لها من شق الفرات الشامي من أهم مراكزهم. وبعد أن حقق المسلمون الانتصارات داخل الجزيرة أجابوا غياض بن غنم للمصالحة)(٩٧).

خامسا: دخول أهل الشام في عقد الذمة مع المسلمين

(أ) في زمن الرسول (صلى الله عليه وسلم):

الذمة في اللغة تعني: الأمان، والعهد والضمان والكفالة(٩٨).

وقد جرى العرف على إطلاق لفظ (أهل الذمة) على غير المسلمين الذين يقيمون في الدولة الإسلامية ويلتزمون بدفع الجزية(٩٩).

وقد تنزل التشريع القرآني بذلك بعد فتح مكة مبيناً وجوب هذا المقصد بقوله تعالى: (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)(١٠٠) وكان الرسول (ص) أول من طبق عمليا قواعد نظام أهل الذمة على النصارى واليهود في الحجاز. ثم على مجوس البحرين عندما قال عليه السلام بحقهم: (سنّوا بهم سنة أهل الكتاب)(١٠١).

وقد فرضت الجزية على الذكور البالغين من أهل الذمة، ولم تفرض على النساء والأطفال والشيوخ، مقابل تعهد المسلمين بالمحافظة على أرواح السكان الذميين وأموالهم وحريتهم الدينية واعفائهم من الخدمة العسكرية. وهي ليست نوعا من العقوبة، ولكن فرضها يعني

خضوع الذميين للسلطة الإسلامية خضوعا مشوبا بالصغار (الدونية) فهذا هو مضمون النص: (عن يد وهم صاغرون).

ويعتبر نصارى أيله أول من دخل عقد الذمة مع المسلمين من أهل الشام. في عهد الرسول (ص)(١٠٢).

وقد جاء في كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم: (إلى يحنه بن رؤبه: بسم الله الرحمن الرحيم هذا أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنه بن رؤبه وأهل أيله: لسفنهم وسائرهم في البر والبحر، لهم ذمة الله وذمة محمد رسول الله، ولمن كان معه من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، ومن أحدث حدثا فإنه لا يحول ماله دون نفسه..)(١٠٣).

أما كتاب الرسول (ص) إلى أهل أذرح والجرباء، وهما بلدان يقعان في محافظة معان في جنوبي الأردن فهذا نصه: (بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد النبي (ص) لأهل أذرح أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد، وأن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة، والله كفيل عليهم بالنصح والإحسان للمسلمين، ومن لجأ إليهم من المسلمين من المخافة والتعزيز إذا خشوا على المسلمين، وهم آمنون حتى يحدث إليهم قبل خروجه)(١٠٤).

وكان صاحب إيله قد أتى الرسول صلى الله عليه وسلم، عندما خرج في غزوة تبوك عام ٩هـ فصالحه الرسول (ص) وقطع له الجزية ثلاثماية دينار كل سنة حيث كان سكان أيلة ثلاثماية رجل(١٠٥).

أما أهل أذرح وجرباء فإن ما فرض عليهم بالإضافة إلى المائة دينار تأمين وحماية المسلمين الذين يلجأون إليهم، ونصحهم والإحسان إليهم(١٠٦).

(ب) في فترة الفتوحات الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين:

كان الفاتحون المسلمون هم المبادرين بطلب دخول أهل الشام في عقد الذمة معهم. فعندما راسلهم أهل مدينة فحل قائلين: (يا معشر المسلمين أنتم أحب إلينا من الروم وإن كانوا على ديننا، أنتم أوفى لنا وأرأف بنا وأكف عن ظلمنا، وأحسن ولاية علينا، لكنهم قد غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا)(١٠٧)فرد عليهم المسلمون: (أن هذا ليس بنافع لكم عندنا ما لم تعتقدوا منا الذمة)(١٠٨).

وقد أدرك المسلمون الفاتحون منذ بداية الفتوحات أن أول وأهم ما يجب أن يشيع في نفوس السكان هو الإحساس (بالأمان) تجاههم، فلا يفسده الخوف او القلق لكي تتوفر لديهم الثقة بأصحاب الدعوة، وبالتالي بالدعوة نفسها فلا يتحفزون لقتال المسلمين إلى جانب الروم، ولا يغلقون عقولهم وقلوبهم في وجه الدعوة الجديدة(١٠٩).

أما الأمان الذي كان ضرورياً لأهل الشام فهو الأمان على أنفسهم وأموالهم ومنازلهم وكنائسهم. وهو الأمان الذي كان أهل الشام يفتقدونه في ظل الدولة البيزنطية بسبب الانقسامات المذهبية والاضطهادات الدينية(١١٠).

ورغم كثرة عهود الصلح، وعقود الذمة التي تميزها فتوحات بلاد الشام لم يخل أي عقد منها من شرط الأمان هذا.

أما كثرة عهود الصلح، فراجع إلى أن كل مدينة كانت تطلب في دخولها عقد الذمة إبرام عهد خاص بها. وسبب ذلك أن لكل مدينة منها ظروف تميزها عن غيرها ولوجود إدارة محلية لكل مدينة هي المسؤولة عن شؤونها. وكل هذا لم يمنع طلب بعض المدن أن يكون صلحها مماثلا لصلح جرت عليه مدينة أخرى قبلها، وبخاصة إذا كانت المدينة السابقة هي المدينة الأم (عاصمة محلية) فمثلا طلبت مدن الجزيرة أن تصالح مثل صلح الرها، ومدينة حمص صالحت على نحو صلح بعلبك، وقنسرين على مثل صلح حمص، وعمّان على مثل صلح بصرى، ولكن ذلك لم يكن حرفيا وإنما كان يتعلق بشرط الأمان وبمقدار الجزية والخراج بصورة أساسية(١١١).

ومن أمثلة عهود الصلح كتاب عمر بن الخطاب إلى أهل إيلياء (بيت المقدس) الذي جاء فيه أن عمرا: (... أعطى أهل إيلياء أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا يسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم...)(١١٢) ونلاحظ في العهد التركيز على الكنائس والصلبان بالإضافة إلى الحرية الدينية بعد الأمان على الأنفس والأموال..الخ. وتكرر ذلك في صلح دمشق مع إشارة خاصة بسور مدينتهم فقد جاء فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذ دخلها: أعطاهم أمانا على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم، ولا يسكن شيء من دورهم. لهم بذلك عهد الله وذمة

رسوله (ص) والخلفاء، والمؤمنين، لا يعرض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية.)(١١٣).

أما عهد المسلمين لمدينة الرقه فهو مختلف إذ اشترط غياض بن غنم عليهم أن لا يبنوا كنائس جديدة، وأن لا يظهروا ناقوساً ولا باعوثاً لا صليباً وقد جاء فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما أعطى غياض بن غنم أهل الذمة يوم دخلها؛ أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم لا تخرب ولا تسكن إذا أعطوا الجزية التي عليهم ولم يحدثوا مغيله، وعلى أن لا يحدثوا كنيسة ولا بيعة، ولا يظهروا ناقوسا ولا باعوثا ولا صليباً.)(١١٤).

وبما أن الصبغة العامة لسكان هذه المدن أن غالبية سكانها نصارى لذلك شمل الأمان الكنائس والبيع والصلبان بعد أمان الأنفس والأموال. ومع ذلك اختلف عهد الرقه (أن لا يحدثوا كنيسة ولا بيعة ولا يظهروا ناقوسا ولا باعوثا ولا صليبا)(١١٥) وأيضاً أختلف صلح حمص؛ إذ اشترط المسلمون أخذ جزء من الكنيسة لجعله مسجداً(١١٦).

وبعض العهود شملت في عهدها سور المدينة وهي دمشق وحمص وحلب أما حماة فقد انفردت بذكر الحصن الذي بها(١١٧).

وفي حال تنوع عناصر سكان المدينة، ذكر ذلك في العهد كما ورد في صلح بعلبك: (رومها، وفرسها، وعربها)(١١٨).

وأما بالنسبة للروم البيزنطيين، فقد اعطتهم عهود الصلح وضعا خاصا باعتبارهم رعايا الدولة العدو المغلوبة. فخيرتهم بين: الرحيل

خلال مدة معينة وهم آمنون في رحيلهم، أو البقاء وقبول الخضوع للشروط التي قبل بها السكان الآخرين، وجاء ذلك في عهود أنطاكية وحمص وإيلياء وبالس(١١٩).

وقد أنفت بعض العرب المتنصرة دفع الجزية كجبلة بن الأيهم الذي رفضها قائلا: (إنما يؤدي الجزية العلوج وأنا رجل من العرب)(١٢٠) فلما أصر عمر بن الخطاب (ر.ض) على دفعها فضل اللحاق بالروم ومعه ألوف من إياد وقضاعة وغسان ولخم أختلف في عددهم(١٢١). أما بالنسبة لقبيلة تغلب النصرانية فقد استجاب عمر بن الخطاب لطلبهم بدفع الصدقة مضاعفة، مفضلين ذلك على دفع الجزية لكي لا يكونوا في مصاف الأعلاج(١٢٢).

وفشلت محاولات البيزنطيين لإثارة أهل الشام ضد المسلمين(١٢٣). لأنهم قبلوا بالمسلمين العرب حكاما لهم يتمتعون في ظلهم بحريتهم الدينية، وتحفظ لهم كرامتهم الإنسانية من خلال المعاملة المنصفة العادلة، ويدفعون جزية وخراجا أهون وأقل قيمة من الضرائب البيزنطية(١٢٤)، في حياة آمنة من الاعتداء الذي مارسه البيزنطيون عليهم طويلا.

عقد الذمة

وبطلب من الولاة المسلمين، انتقل أهل الذمة في بلاد الشام إلى الخطوة التالية. وهي أن يكتبوا كتابا موجها إلى الخليفة، يتعهدون فيه بتنفيذ كل ما اتفقوا عليه مع المسلمين. خاصة الواجبات الملقاة على عاتقهم لقاء الأمان الذي أخذوه منهم، وهذا نص التعهد:

(بسم الله الرحمن الرحيم)

إنا سألناك الأمان لأنفسنا وأهالينا وأولادنا وأموالنا وأهل ملتنا، على أن نؤدي الجزية عن يد ونحن صاغرون، وعلى أن لا نمنع أحدا من المسلمين أن ينزلوا كنائسنا في الليل والنهار، ونضيفهم فيها ثلاثا، ونطعمهم فيها الطعام ونوسع لهم أبوابها، ولا نضرب فيها بالنواقيس، إلا ضربا خفيفا، ولا نرفع فيها أصواتنا بالقراءة، ولا نؤوي فيها ولا في شيء من منازلنا جاسوسا لعدوكم، ولا نحدث كنيسة ولا ديرا ولا صومعة ولا قلاية، ولا نجدد ما خرب منها، ولا نقصد الاجتماع فيما كان منها في خطط المسلمين بين ظهرانيهم، ولا نظهر شركا ولا ندعو إليه، ولا نظهر صليبا على كنائسنا ولا في شيء من طرق المسلمين وأسواقهم، ولا نتعلم القرآن ولا نعلمه أولادنا ولا نمنع أحدا من ذوي قراباتنا الدخول في الإسلام إن أراد ذلك، وأن نجز مقادم رؤوسنا ونشد الزنانير في

أوساطنا، ونلزم ديننا ولا نتشبه بالمسلمين في لباسهم ولا في هيئتهم ولا في سروجهم، ولا نقش خواتمهم فننقشها عربيا، ولا نكتني بكناهم، وأن نعظمهم ونوقرهم ونقوم لهم من مجالسنا، ونرشدهم في سبلهم وطرقاتهم، ولا نطلع في منازلهم، ولا نتخذ سلاحا ولا سيفا ولا نحمله في حضر ولا سفر في أرض المسلمين، ولا نبيع خمرا ولا نظهرها، ولا نظهر نارا مع موتانا في طرق المسلمين، ولا نرفع أصواتنا مع جنائزهم، ولا نجاور المسلمين بهم، ولا نضرب أحدا من المسلمين، ولا نتخذ من الرقيق شيئا جرت عليه سهامهم.) (١٢٥).

ويعتقد أن عبدالرحمن بن غنم الأشعري هو الذي كتب لعمر بن الخطاب نص الكتاب الموجه إليه من نصارى الشام. وفي بعض الروايات أن عمر بن الخطاب قرأ النص وزاد فيه: (... ولا نضرب أحدا من المسلمين، شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الأمان. فإن نحن خالفنا على شيء مما شرطناه لكم وضمنّاه على أنفسنا فلا ذمة لنا. وقد حل لكم منّا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق) (١٢٦). ويعتقد الباحث أن هذا العقد قد جاء في فترة زمنية متأخرة عن فترة عمر بن الخطاب ولعلها كانت في فترة عمر بن عبدالعزيز.

ولكن أهم ما في هذا العهد، أنه يعطينا فكرة واضحة بشأن أسلوب معاملة أهل الذمة في بلاد الشام في النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية في صدر الدولة الإسلامية. فلم يتجاوز المسلمون شروط هذا النص بل أحسنوا معاملة الذميين، ولم يعتدوا على حقوقهم أو يضطهدوهم في جميع أمور الدولة المالية منها والإدارية. وكان منهم

الأطباء وجباة الخراج، وكتّاب الدواوين، ومربي أبناء الخلفاء. وشاركوا في الأعمال الحربية البرية والبحرية. وعموماً كانت سماحة المسلمين في تقيدهم بشروط العهد دافعاً لأهل الذمة للمشاركة في بناء الحضارة العربية الإسلامية يداً بيد مع المسلمين.

هوامش الفصل الأول

(١) ابن خرداذبة. المسالك والممالك، ص ٧٥-٧٩

(٢) اليعقوبي، البلدان، ص٣٢٤

(٣) البكري، معجم ما استعجم من اسماء البلاد والمواضع، ج١، ص ٦٦٣

(٤) اليعقوبي، البلدان، ص٣٣٠

(٥) الاصطخري، مسالك والممالك، ص ٥٥

(٦) الاصطخري، اقاليم، ص٣٥، (خارطة الشام)

(٧) الاصطخري، مسالك الممالك، ص٥٥

(٨) المقدسي، احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١٤٠

(٩) ابن حوقل، صورة الارض، ص ١٥٥ ((خارطة الشام))

(١٠) الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ص ٣١٢

(١١) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٢٢٥

(١٢) البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٦٣، ١٦٤

(١٣) البلاذري، فتوح، ص ١٨٥

(١٤) البلاذري، فتوح، ص ١٨٨

(١٥) البلاذري، فتوح، ص ١٦٥

(١٦) البلاذري، فتوح، ص ١٦٥

(١٧) المقدسي، احسن التقاسيم، ص ١٤٠

(١٨) ابو الفداء، تقويم البلدان، ص ٢٥٥

(١٩) لامنس، هنري، المذكرات الجغرافية، ص٤٥٨.

(٢٠) دويدري، رجاء، جغرافية سوريا والوطن العربي، ص ٣٩

(٢١) دويدري، رجاء، جغرافية سوريا، ص٤٩.

(٢٢) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٥٧

(٢٣) بحيري، صلاح الدين، جغرافية الأردن، ص ٩٣

(٢٤) بحيري، المرجع السابق، ص ٩٤

(25) Trimingham. J.S. Christianity Among the Arabs in the pre- Islamic times. p313

(٢٦) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص١٦٨

(27) Fisher. W.B The middle P.118.

(28) E.B. Art. Samaritan.

(٢٩) البلاذري، فتوح، ص ١٣٣

(30) Theophnes. The chronicle. trans Harry Turtledove p 37

(٣١) البلاذري، فتوح، ص ١٥٤

(٣٢) البلاذري، فتوح، ١٨٩

(٣٣) شلبي، رؤوف، يا أهل الكتاب ((دراسة مقارنة للمسيحية))، ص٢٠٦.

(٣٤) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج١، ص ٢٥٤.

(٣٥) ابن البطريق، التاريخ المجموع، ص ١٨٢

(٣٦) ابن البطريق، التاريخ المجموع، ص ١٨٢

(٣٧) احسان عباس، تاريخ بلاد الشام، ص ١٥٤ - ١٥٦

(٣٨) احسان عباس، المرجع السابق، ص ١٥٤ - ١٥٦

(39) Trimingham. J.S. Christianty Among the Arabs in the pre - Islamic times. p. 186

(40) Trimingham. p. 187

(٤١) البلاذري، فتوح، ص ١٤٣

(٤٢) ظاظا، حسن، الفكر الديني الإسرائيلي، ص ٢٦٣، يوسف عيد، الديانة اليهودية، ص٨٥

(٤٣) ابن البطريق، التاريخ المجموع، ص ٦

(44) E.B. Art. Syria. History of Syria

(٤٥) عباس، احسان، تاريخ بلاد الشام، ص ١٥٧

(٤٦) ديونيسيوس التلمحري، التاريخ المتحول، ص ٧-٨ من الترجمة العربية.

(٤٧) ابن البطريق، التاريخ المجموع، ص٥.

(٤٨) ابن البطريق، التاريخ المجموع، ص٦.

(٤٩) البيروني، الآثار الباقية في القرون الخالية، ص٢١.

(50) E.B.Art. Samaritan.

(٥١) عباس، إحسان، تاريخ، ص١٥٨.

(٥٢) دائرة المعارف الإسلامية، مادة السامرة، E.B.Art. Samaritan.

(٥٣) ابن البطريق، التاريخ المجموع، ص٦.

(٥٤) البلاذري، انساب الأشراف، ج١، ص٥٣١.

(٥٥) ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير، ج١، ص١٢٩.

(٥٦) اليعقوبي، تاريخ البعقوبي، ج٢، ص٦٧.

(٥٧) العسقلاني، ابن حجر، الاصابة في تمييز الصحابة، ج١، ص٣٣٢.

(٥٨) العيني، السيف المهند، ص٢٢.

(٥٩) الواقدي، المغازي، ج٢، ص٥٥٥.

(٦٠) الواقدي، المغازي، ج٢، ص٥٦١.

(٦١) الواقدي، المغازي، ج٢، ص٧٥٢.

(٦٢) الواقدي، االمصدر السابق، ج٢، ص٧٥٥.

(٦٣) الواقدي، المغازي، ج٢، ص٧٦٩.

(٦٤) الواقدي، االمصدر السابق، ج٣، ص١٠١٩.

(٦٥) ابن سعد، الطبقات، ج١، ص٢٥٥.

(٦٦) ابن سعد، الطبقات، ج١، ص٢٥٥.

(٦٧) الأزدي، فتوح الشام، ص١٣١.

(٦٨) الأزدي، فتوح، ص٤٣، الديار بكري، تاريخ، ج٢، ص٢٥٣.

(٦٩) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٣، ص٣٨٨.

(٧٠) الطبري، تاريخ، ج٣، ص٣٩١.

(٧١) البلاذري، فتوح، ص١١٧.

(٧٢) الأزدي، فتوح الشام، ص١١١، ١٢٠.

(٧٣) الأزدي، فتوح، ص٣١.

(٧٤) البلاذري، فتوح، ص١٦٢.

(٧٥) البلاذري، فتوح، ص١١٩، ١٣١، ٧١، ١٣٧.

(٧٦) ابن عساكر، تاريخ، ج١، ص١٨١.

(٧٧) ابن عساكر، تاريخ، ج١، ص١٧٩.

(٧٨) البلاذري، فتوح، ص١٧٢-١٧٥.

(٧٩) البلاذري، فتوح، ص١٤٣.

(٨٠) قدامة، الخراج، ص٢٩٧.
(٨١) الواقدي، فتوح، ج١، ص١٧١.
(٨٢) الواقدي، فتوح، ج١، ص١٦٩.
(٨٣) ابن أعثم، الفتوح، ج١، ص١٢٥-١٢٧.
(٨٤) ابن عساكر، تاريخ، ج١، ص١٦١
(٨٥) الأزدي، فتوح، ص٢٢٧.
(٨٦) رنسيمان، ستيفن، الحضارة البيزنطية، ج١، ص٣٤.
(٨٧) ابن خلدون، تاريخ بن خلدون، ج٢، ص١٠٥.
(٨٨) العجلاني، منير، عبقرية الإسلام في أصول الحكم، ص١١.
(٨٩) الطبري، أبوجعفر، تاريخ الرسل والملوك، ص٤٧٩-٤٨١.
(٩٠) بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج١، ص١٢١.
(٩١) الواقدي، المغازي، ج٣، ص١٠١٩.
(٩٢) البلاذري، فتوح، ص١٤٣.
(٩٣) البلاذري، فتوح، ص١٤٣.
(٩٤) الطبري، تاريخ، ج٣، ص٦٠٩.
(٩٥) ابن البطريق، التاريخ المجموع، ص٦.
(٩٦) الطبري، تاريخ، ج٤، ص٥٤.
(٩٧) الواقدي، المغازي، ج٢، ص٩٨.
(٩٨) القاموس المحيط، ج٤، ص١١٥.
(٩٩) دوايدار، حسين، أهل الذمة، ص١٦٦.
(١٠٠) سورة التوبة الآية: ٢٩.
(١٠١) البلاذري، فتوح، ص٢٦٦.
(١٠٢) إبراهيم زيد الكيلاني، المراسلات النبوية مع بعض القبائل العربية في جنوبي بلاد الشام، م.د.ع.ت.ش، الندوة الثانية، ص٩٤-٩٦.
(١٠٣) البلاذري، فتوح، ص١٧٧.
(١٠٤) الطبري، تاريخ، ج٢، ص٢٣٠.
(١٠٥) الزرقاني، شرح الزرقاني، على المواهب اللدنية للقسطلاني ج٨، ص٧٨.

(١٠٦) الكيلاني، إبراهيم، المرجع السابق، ص٩٤.
(١٠٧) قدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، ص٢٩٧.
(١٠٨) قدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، ص٢٩٧.
(١٠٩) خماش، نجدة، الشام في صدر الإسلام، ص١٢٧.
(١١٠) عاشور، أوروبا في العصور الوسطى، ص٥٥.
(١١١) إحسان عباس، تاريخ، ص٢٨٥.
(١١٢) الطبري، تاريخ، ج٣، ص٦٠٩.
(١١٣) ابن عساكر، تاريخ، ج١، ص٤٩٩.
(١١٤) البلاذري، فتوح، ص٢٠٦.
(١١٥) أبوعبيد، الأموال، ص٢٩٨.
(١١٦) ابن عساكر، تاريخ، ج١، ص٤٩٢.
(١١٧) البلاذري، فتوح، ص١٥٢-١٥٩.
(١١٨) البلاذري، فتوح، ص١٥٤.
(١١٩) الطبري، تاريخ، ج٣، ص٦٠٩.
(١٢٠) اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص١٢٤.
(١٢١) البكري، معجم ما استعجم، ص٧١.
(١٢٢) البلاذري، فتوح، ص١٨٦، ارنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص٦٧.
(١٢٣) الطبري، تاريخ، ج٤، ص٥١-٥٢.
(١٢٤) دينيت، دانيل، الجزية والإسلام، ص١٠٧.
(١٢٥) ابن عساكر، التاريخ، ج١، ص٥٦٣-٥٦٤.
(١٢٦) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ص٥٦٤-٥٦٦.

الفصل الثاني

الرعايا غير المسلمين في الدولة الأمــويــة في بــلاد الـشــام

أولاً: النصارى:

كانت فلسطين مهداً للنصرانية، ولم يلبث المسيح عيسى بن مريم عليه السلام في الدعوة إلى الله إلا قليلاً (١) ، وسار على نهجه أتباعه (الحواريون) الذين واصلوا الدعوة من أرض فلسطين في ظروف قاسية، وعانوا من اضطهاد اليهود(٢) وأباطرة بيزنطة الوثنيين(٣). فنتج عن هذا الاضطهاد تباطؤ في عملية انتشار النصرانية في أول الأمر وأحيطت حالات الإيمان الفردية بالسرّية والكتمان الشديدين(٤). ومع ذلك فإن بلاد الشام كانت موطن النصرانية الأول فانتشرت الدعوة في ربوعها قبل انتشارها في أرجاء المعمورة. وقد كان لكنيستي أنطاكية (يونانية اللغة) والرها (سريانية اللغة) دور عظيم في نشر النصرانية في ربوع بلاد الشام.

لكن هذا الازدواج الذي كان في أساسه لغوياً أصبح فيما بعد خلافاً مذهبياً دار الجدل والصراع فيه حول طبيعة المسيح(٥).

مناطق استقرار النصارى في بلاد الشام

لم تختلف مناطق استقرار النصارى في الفترة الأموية اختلافاً كبيراً عن مناطق استقرارهم عند بدء الفتوحات والعهد الراشدي. أي أن جميع أرجاء بلاد الشام كانت تعج بهم لأنهم كانوا يشكلون غالبية سكان الشام. ولكننا نستطيع تقسيم مناطق استقرارهم إلى نمطين هما :

١ – المدن .

٢ - الأرياف والقرى .

١ - المدن

سكن المسلمون فيها بعد الفتح وخاصة في المنازل التي جلى عنها ساكنوها من البيزنطيين والنصارى كدمشق وقد ذكر البلاذري أن بشراً كثيرين من ساكنيها لحقوا بهرقل وهو بانطاكية عند فتحها، كما جلا قسم من أهل حمص عنها(٦). ولكن غالبية سكانها ظلّوا من النصارى. وسكن المسلمون مع النصارى في دور واحدة. وكان النصرانيّ يسكن في العلوّ والمسلم في الأسفل لئلا يضرّ المسلم بالذميّ(٧). ويعتقد أن هذا الحال ينطبق على كثير من مدن الشام كبيت المقدس وقيسارية وصيدا وعرقه وجبيل وبيروت(٨) وجبله(٩) وبصرى(١٠) وحلب وبعلبك وانطاكية (وهي حصن النصرانية الحصين في الشرق والرها وغيرها من مدن الجزيرة)(١١) وهي المدن التي كان يقطنها الروم بأعداد كبيرة كذلك اشتمال عهد الصلح الذي أبرمه عمر بن الخطاب مع (صفرونس) حاكم إيلياء (القدس) على شروط خاصة بالروم تضمن لهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وأهليهم، سواء أولئك الذين سيقيمون فيها أم الذين سيغادرونها من احتشاد الجيوش البيزنطية داخل أسوارها بأعداد كبيرة. وضراوة القتال (عدا بيت المقدس) قبل فتحها، واشتمال عهود الصلح الخاصة بها على شرط: (خاص بالروم) فيورد الطبريّ (من خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغ مأمنه، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على...)(١٢) وهكذا لم يبق من الروم في مدن بلاد الشام الشمالية أحد. بينما يذكر اليعقوبي وجودهم، مُطلِقاً عليهم اسم (العجم) في جند الأردن وفلسطين في عكّا

وبيسان وإيلياء، واللد وعمواس وفي فحل وجرش من كورالأردن(١٣). وبالتالي فإن النصارى الذين كانوا يشكلون أغلبية سكان مدن الشام في العصر الأمويّ هم من أهل البلاد الأصليين أي بقايا الآراميين من (النبط والسريان) ومترسبات الحضارات السابقة. بالإضافة إلى نصارى القبائل العربية التي استوطنت مدن الشام في الفترة البيزنطية من تنّوخ وغسّان وكلب ولخم وجذام وتغلب وسليح وبهراء(١٤).

أما الجراجمة ونصارى النبط الذين كانوا يقطنون الجرجرمة من جبل اللكام، فقد تفرّق معظمهم في خلافة عبدالملك بن مروان بقرى حمص ودمشق. وفي عهد الوليد بن عبد الملك خرّب مسلمة بن عبدالملك مدينتهم لكثرة ما كانوا يكاتبون الروم ويمالئونهم. وأسكنهم جبل الحوار وعمق تيزين(١٥). ونزل بعضهم أنطاكية(١٦).

وثانيها: الأرياف والقرى وظلت في الفترة الأموية ذات أغلبية نصرانية. وكان سكانها من النبط أحفاد الآراميين ولاشتغال معظمهم بفلاحة الأرض فإن لفظة نبط عند ابن منظور وردت مرادفة (لفلاحة الأرض واستنباط ما بها)(١٧)

ويعود ذلك لاعتبار الريف كله أرضاً فتحت عنوة(١٨)، لأن البيزنطيين هزموا في كل المعارك التي جرت خارج أسوار المدن وفي الارض المكشوفة وأيضاً لأن سكان الأرياف لم يهاجروا معهم من قراهم، بل تمسكوا بأرضهم التي يعتمدون عليها في معيشتهم، لأنهم كانوا مخالفين للبيزنطيين في لغتهم ومذهبهم. يضاف إلى ذلك استمرار الأمويين في تطبيق سياسة عمر بن الخطاب (ر.ض.) بأن لا يبتدروا

إلى القرى ويتركوا المدن، لأن الريف يجب أن يبقى بيد فلاحيه(١٩). ولكن يستثنى من ذلك بعض المناطق الحدودية في الجزيرة التي ذكر البلاذري عند حديثه عن راس العين:

(جلا خلق من راس العين واعتمل المسلمون وازترعوها بإقطاع)(٢٠) وفيما بعد أنزل معاوية بن أبي سفيان ربيعة ومضر بالجزيرة؛ فجعل راس العين في أعلى الخابور حداً فاصلاً بينهما، فتقوم ديار ربيعة إلى الشرق، بينما انتشرت ديار مضر غرباً فوصلت حلب وقنسرين(٢١).

طوائف نصارى الشام (في الفترة الأموية):

باعتناق الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الكبير النصرانية عام ٣١٤م(٢٢) دخلت الديانة النصرانية مرحلة جديدة. فخرجت من السرية إلى العلنية ومن القمع والإضطهاد إلى الحماية الإمبراطورية(٢٣). وأصبحت ديناً رسمياً للدولة البيزنطية فانتشرت في كل أنحاء الإمبراطورية(٢٤).

كان أريوس أول من جهر بأن المسيح عليه السلام إنسان. وتبع مذهبه غالبية النصارى في العالم وخاصة الشرق والذين عرفوا بالآريوسيين. ولكن الإمبراطور قسطنطين ولأسباب سياسية لم يدعم موقف النصارى الشرقيين في مجمع نيقية عام ٣٢٥م رغم أنهم كانوا أغلبية كاسحة في المجمع بل ساند موقف الأقليّة (٣١٨ من ٢٠٤٨) (الغربيين) بأن المسيح إله. وقد حكم المجمع على أريوس بحرمانه ونفيه وحرق كتبه، ولكن تعاليم أريوس انتشرت أكثر وخاصة بعد موته(٢٥).

وهكذا فإن عقيدة نصارى بلاد الشام كانت في الأصل على مذهب آريوس، ثم ظهر مذهب نسطور القائل: بأن للمسيح طبيعتين، والقائل بانفصال الطبيعة اللاهوتية عن الطبيعة الناسونية. وأن اللاهوت لم يولد ولم يصلب ولم يقم مع الناس وأن المسيح ليس إلهاً بل هو إنسان مبارك ونسطور هذا كان يعيش في دير قرب انطاكية ثم رقي إلى منصب أسقف القسطنطينية(٢٦).

وفي عام ٤٣١م عقد مجمع أفسس. فحكم بإدانة نسطور ولعنه ونفيه إلى مصر، وأقرّ المجمع أن مريم العذراء أمّ الرب وأن للمسيح طبيعتين واحدة لاهوتية وأخرى ناسونيّة (بشرّية)(٢٧).

ولكن ظهرت من أتباع نسطور في بلاد الشام طائفة النساطرة. وقد تركز النساطرة من عربٍ ونبطٍ في منطقة الجزيرة وكانت كنيستهم الكبرى في الرها، وكانت نصيبين والأرياف حولها والمدن الثانية كانت تحاذي الإمبراطورية الفارسية معقل النسطوريّة في الشام(٢٨). ولم يتبدّل الحال في الفترة الأموية، فقد أعاد معاوية بن أبي سفيان ترميم كنيستهم الكبرى في الرها وأعادها إلى سابق عهدها عندما هدمت الزلازل جانباً كبيراً منها(٢٩).

ثم تحقق انفصال الكنيسة الشرقية عن الكنيسة الغربية بعد عقد مجمع خلقيدونيه عام (٤٥١م) الذي عقد بأمر الإمبراطور مرقيان (٤٥٠ - ٤٥٧م) والذي أقر بأن للمسيح طبيعتين كاملتين (لاهوتية وناسونيّة) متّحدتان في شخص المسيح الذي هو إله وإنسان في الوقت نفسه(٣٠). وأقر المجمع لعن ديسقورس (بطريرك الإسكندرية) ونفيه

إلى فلسطين لأنه يقول بأن للمسيح طبيعة واحدة فقط، ونتج عن ذلك انفصال الكنيسة القبطيّة في مصر وانقسام كنيسة أورشليم(٣١). ويذكر ابن البطريق أن كنيسة القسطنطينيّة تبنّت مقررات خلقيدونيه وتبعتها كنائس الإمبراطوريّة البيزنطيّة فأصبحت مذهباً رسمياً للدولة(٣٢).

وعرف الذين أيدوا مقررات خلقيدونيه بالخلقيدونيين وسمي أتباع المذهب فيما بعد (بالروم الأرثوذكس) وعرفوا أيضاً بعد ذلك (بالملكانيين) واتّبعته كنيسة أنطاكية وهي يونانيّة اللغة. واتبعه سكان المدن الشامية وفلسطين ويستطرد ابن البطريق فيقول: (فأما ديسقورس لما نفي إلى فلسطين وبيت المقدس فقد أفسد الدين كل من بفلسطين وبيت المقدس حتى قالوا بمقالته...) (٣٣).

ويذكر القلقشندي أن ديسقورس ثامن بطارقة الإسكندرية كان يُدعى يعقوب سابقاً. ولكنه يورد احتمالاً آخر، بأن أحد أتباعه كان أسقفاً للرها ويدعى يعقوب البرادعي (ت ٥٧٨م) قد استغل حماية ثيودورا زوجة (الإمبراطور جوستنيان ت ٥٦٥م) لجماعة الطبيعة الواحدة، فأسّس بين عامي ٥٤٣ - ٥٤٤م الكنيسة اليعقوبيّة ونظم المذهب ورسم الأساقفة وثبت الناس في بلاد الشام على مذهب الطبيعة الواحدة(٣٤). واستبدل اليعاقبة اللغة اليونانيّة في طقوسهم باللغة السريانية. ومن هنا أصبحت تسمية يعاقبة مترادفة مع السريان(٣٥) وقد أضفى هذا على الكنيسة اليعقوبية صبغة قوية تدل على نزعة استقلاليّة مغلّفة بهذا الرداء المذهبيّ للسريان في الشام وسبقهم الأقباط (المصريون

الأصليون) إلى ذلك(٣٦)، فاستخدموا اللغة القبطية. وقد بالغ بعض الأباطرة البيزنطيون كجوستنيان وفوقاس (٦٠٢ - ٦١٠م) في اضطهاد اتباع مذهب الطبيعة الواحدة بالقتل والنفي والسجن(٣٧) مما فاقم أمر الإنشقاق المذهبي وزاد في تمسك أهل الشام (ومصر) بمذهب الطبيعة الواحدة.

وشهد عهد الإمبراطور هرقل (٦١٠ - ٦٤١م) محاولة أخيرة من الدولة الرومانية وكنيسة القسطنطينيّة لإيجاد صيغة توفيقيّة بين جميع المذاهب مستفيداً من ظهور معادلة مثاليّة لحلٍّ وسط هي مذهب مارون الذي انتشر في بعض جهات بلاد الشام. (انبثاق طاقة واحدة، وإرادة واحدة من اتحاد اللاهوت بالناسوت في المسيح)(٣٨) ولكن نجاح الفتوحات العربية الإسلامية لبلاد الشام (ومصر) وضعت نهاية لهذه المحاولات، وتحررت الكنائس جميعها من سطوة القسطنطينية لأن الفاتحين المسلمين منحوا الأمان وحرية المعتقد لسكان الشام جميعاً وعلى اختلاف أديانهم و مذاهبهم(٣٩).

دور عبادة النصارى في بلاد الشام في الفترة الأموية

عند مطالعتنا لعهود الصلح التي أبرمها الفاتحون المسلمون مع نصارى الشام، نجد بنوداً واضحة يلتزم المسلمون بموجبها بإعطاء الأمان للكنائس والبيع: (ألّا تهدم بيع الذميين و لا كنائسهم داخل المدينة ولا خارجها)(٤٠). ويترافق أمان دور العبادة دائماً بالأمان على الأنفس والأموال(٤١). ونسوق على ذلك مثال عهد إيلياء (بيت المقدس): (أن عمر بن الخطاب أعطى أهل إيلياء الأمان لأموالهم

وأنفسهم ولكنائسهم لا تهدم)(٤٢). وفي صلح حمص أيضاً: (أن أبا عبيدة صالح أهل حمص بأن أمنهم على أنفسهم وأموالهم وسور مدينتهم وكنائسهم وأرواحهم)(٤٣).

وكانت بلاد الشام كثيرة الكنائس والأديرة والبيع عند الفتح. وظلت كذلك بل زادت كنائسها وأديرتها في العصر الأموي. ومن أهم هذه الكنائس: كنيسة القيامة في بيت المقدس، وهي أقدس مقدسات النصارى يحجون إليها من كل مكان في الدنيا كل عام(٤٤).

ومن الكنائس المقدسة في فلسطين أيضاً كنيسة المهد في بيت لحم. ويعتقدون أنها مكان ولادة المسيح عليه السلام(٤٥). وقد أضيفت كنائس في زمن الأمويين ففي بيت المقدس أضيفت كنيسة العذراء إلى كنيسة الجلجلة(٤٦). وكان في حلب نيف وسبعون هيكلاً للنصارى(٤٧)، وفي دمشق خمس عشرة كنيسة(٤٨) وفي رواية ابن عساكر أن الوليد بن عبد الملك عرض على النصارى مالاً كثيراً وأن يبني لهم كنيسة حيث شاؤوا مقابل كنيسة يوحنا فرفضوا فهددهم، بهدم كنيسة توما لبناء المسجد فيها لأنها لم تكن في العهد(٤٩) فقبلوا. وفي رواية ابن شداد أنه أخذ كنيسة يوحنا وأعطاهم مقابل ذلك أربع كنائس لم تكن داخلة في العهد(٥٠).

ويضيف ابن رسته: أنه لا يوجد في الدنيا من بناء أجمل من كنائس حمص وأنطاكية والرها(٥١). ويذكر ترتون أن معاوية أمر بإعادة بناء كنيسة الرها التي دمر الزلزال بعض أجزائها(٥٢).

ويورد الطبري أن عمر بن عبد العزيز أمر عماله: (ألا يقدموا

على هدم شيء من الكنائس، على أن لا يأذنوا بإقامة أخريات جدد)(٥٣).

ويقول الشابشتي: (كل دير صغير أو كبير تكون فيه كنيسة، ويحتوي على صوامع تستوعب ما فيه من الرهبان، ومخازن، وبيوت الطعام، والمضافات التي ينزلها زوار الدير)(٥٤) وبالنسبة للزوار فإن كثيراً من عهود الصلح اشترطت على النصارى أن: (لا يمنعوا كنائسهم وأديرتهم من المسلمين أن ينزلوا فيها في الليل أو النهار)(٥٥) وحددت عهود الصلح ضيافة المسلمين فيها بثلاثة أيام.

وقد كثر الزوار والمتنزهون وعابروا السبيل في الأديرة لا سيما الأمراء وحاشيتهم، فبنيت لاستضافتهم دور خاصة، حيث تقدم لهم فيها الضيافات على أقدار كل منهم، ومن هذه الأديرة (دير مران) بظاهر دمشق وقد اتّخذه يزيد بن معاوية متنزهاً له(٥٦). وعرف دير صليبا باسم دير خالد بن الوليد وهو مقابل باب الفراديس. وسمي كذلك لأن خالد بن الوليد نزل فيه عند حصاره لدمشق، وكان يزيد بن معاوية كثير المقام فيه هو وحاشيته(٥٧).

ولم يتوقف بناء الكنائس والأديرة في زمن الأمويين، بسبب تسامح الخلفاء وتغاضيهم عن البنود الواردة في عهود الصلح والتي تحرّم على النصارى بناء كنائس جديدة. ومن ذلك ما كشفته الحفريات الحديثة التي تمت في الأردن بأن كنيسة العذراء مريم في مادبا بنيت في الفترة (٦٢٢ - ٦٦٣) وكنيسة أخرى في مؤاب يرجع تاريخ بنائها لعام ٦٨٧م(٥٨)، أي في العهد الأموي.

ولا يعتقد الباحث بصحة ادعاء ساويرس: (وافى الموت يزيد بن عبد الملك قبل أن ينفذ أمره القاضي بهدم الكنائس)(٥٩) فيزيد الثاني أمر بتحطيم الأيقونات التي في الكنائس والأديرة في جميع أنحاء الدولة الأموية وهو ما بدأ به الإمبراطور البيزنطي ليو الأيسوري (٧١٧ - ٧٤١م)(٦٠). ولعل ساويرس خلط بين الكنائس والأيقونات.

ثانياً: اليهود

مناطق استقرار اليهود في بلاد الشام في الفترة الأموية

من المرجح أن دخول اليهود إلى بلاد الشام كان في الألف الثانية قبل الميلاد بقيادة موسى عليه السلام، الذي خرج من مصر هارباً بهم من العبودية والوثنية(٦١). ولم يتسن لهم العبور إلى فلسطين إلا في عهد خلفاء موسى عليه السلام حيث أقاموا دولتهم على أجزاء منها مجاورين الكنعانيين. وانقسمت المملكة اليهودية بعد وفاة سليمان عليه السلام ثاني ملوك اليهود (٩٦٠ - ٩٢٥ق.م)، وتعرضت مملكة السامرة للسبي الآشوري في عام ٧٢١ ق.م بعد تدميرها، ثم احتل نبوخذ نصر مملكة يهوذا وسبا سكانها إلى بابل في القرن السادس (ق.م). لكن الفرس بقيادة كورش سمحوا لليهود بالعودة إلى فلسطين بعد تدمير بابل ٥٣٨ ق.م فعاد جزء كبير منهم(٦٢).

ثم خضع اليهود للإمبراطوريّة الرومانيّة بعد احتلالهم ممتلكات السلوقيين اليونان. وقد قلّص بومبي عام ٦٣ ق.م نفوذ ملوكهم وعين كهنة بدلاً عنهم(٦٣).

وعندما ثار اليهود احتجاجاً على محاولة احصاء عددهم عام ٦٦م، اجتاح الجيش الروماني بقيادة تيطس عام ٧٠م أورشليم وأحرقها مع هيكلها وشتت اليهود في انحاء فلسطين وبلاد الشام وحتى العراق والصحراء العربية. وفي عهد هدريان فرغت فلسطين من اليهود بعد قتل أعداد كبيرة منهم في الإنتفاضة التي استمرت أكثر من ثلاث سنوات، وحول الرومان أورشليم إلى مستوطنة رومانية باسم (آلياكا بيتولينا) وسمح لليهود بزيارتها يوماً واحداً في السنة(٦٤). وأطلق على منطقة يهوذا اسم (فلسطين السورية)(٦٥) عام ١٣٥م.

واشتد اضطهاد اليهود بعد القرن الرابع الميلادي، حيث اتخذت الدولة الرومانية النصرانية ديناً رسمياً لها. ومن ذلك القضاء على ثورتهم عام ٥٧٨م التي اتحدوا فيها مع السامريين. وقد ذكر التلمحري أن الإمبراطور فوقاس: (أجبر جميع اليهود على اقتباس سر المعموديّة) فقاموا بثورة عنيفة عام ٦٠٨ وأخرى عام ٦١٠م(٦٦).

ولكن اشد المذابح التي تعرض لها اليهود، كانت في عهد الإمبراطور هرقل الذي نقض الأمان الذي أعطاه لهم بعد وصوله إلى بيت المقدس حاملا الصليب المقدس الذي استرده من الفرس عام ٦٣٠م، واستماعه إلى شكاوى النصارى وخاصة الأساقفة عن إحراق اليهود لكنائسهم وذبحهم للاسرى النصارى عام ٦١٣ / ٦١٤ خلال فترة الاحتلال الفارسي لبلاد الشام، فقتل هرقل من اليهود حول بيت المقدس والجليل ما لايحصى عدده، وحرّم عليهم الدخول إلى أورشليم (بيت المقدس) في منطقة يتراوح قطرها من ٣ - ٥ أميال(٦٧).

ويفسر ترتون ندرة المعلومات في المصادر العربية عن اليهود كونهم فئة قليلة العدد في بلاد الشام في الفترة الأموية(٦٨). ومما يدل على صحة هذا الإفتراض أن النصارى في بيت المقدس اشترطوا في عهد الصلح الخاص بمدينتهم: (... و لا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود...)(٦٩) ولكن ذلك لا يعني بطبيعة الحال اختفائهم من كل فلسطين فقد أجلى الرسول r بني قريظة عن المدينة المنورة وأذن لهم بالذهاب إلى إخوانهم في أذرعات و أريحا(٧٠). ويذكر البلاذري أن معاوية بن أبي سفيان أسكن اليهود في طرابلس عند فتحها(٧١). وأشار البلاذري أيضاً إلى أن المسلمين عندما فتحوا قيسارية وجدوا فيها اليهود، بل إن أحدهم هو الذي دلَ المسلمين على مكان الضعف في المدينة التي طال حصارها وبذلك تمكنوا من فتحها(٧٢). وحتى بيت المقدس لم تخل منهم فذكر التطيلي أن عددهم فيها كان ضئيلاً، ويقيمون في حي مجاور لبرج داود ويحتكرون تجارة الأصباغ في المدينة(٧٣). وفي رواية أخرى للبلاذري أن معاوية بن أبي سفيان لم يكد يستولي على طرابلس حتى جلب إليها اليهود كما في مدن ساحلية أخرى، وهم من يهود الأردن(٧٤) وأورد البلاذري أيضاً أنه عندما ردَّ المسلمون على أهل حمص خراجهم لأنه بلغهم أن هرقل قد جمع الجموع. فنهض اليهود وسكان حمص من النصارى وقالوا: (والتوراة. لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نُغلب ونُجهد، فأغلق يهود حمص وسكانها من النصارى الأبواب وحرسوها)(٧٥) وهذا يدل على أن اليهود كانوا كثرة عددية كبيرة في حمص لدرجة تمكنهم من اتخاذ هذا الموقف وتنفيذه.

ويبدو أن طبرية وصفورية بقيتا معصم اليهودية في بلاد الشام، وكانت منهم جماعة في جرش وتل الرامة(٧٦).

طوائف اليهود في بلاد الشام

تعددت طوائف اليهود نتيجة للخلافات حول الاعتراف باسفار العهد القديم، والتلموذ(٧٧) والمشنا(٧٨) فكانت أهمها: (الفريسيون والقراؤون والسامريون الصدوقيون)(٧٩)وبما أن هذه الدراسة قد أفردت السامريين عن اليهود فسنتناول الفرق الباقية أولاً ثم السامريين بشكل منفصل:

أ) الفريسيون:

وهي أهم فرق اليهود وأكثرها عدداً وتعترف بجميع أسفار العهد القديم، والتلمود والمشنا، ويطلق على فقهائهم اسم الربانيين. وتعني كلمة ربانيم العبرية: الفقيه أو الحبر وتقريبها هو (رباني)(٨٠)وقد أشار القرآن الكريم إليهم (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء)(٨١).

وتعني كلمة الفريسيين: المعتزلة أو المعتزلون، وذلك لشده تقيدهم بحرفية التفاسير لما جاء في التلمود والمشنا، بحيث اصبحوا يدّعون بأنهم وحدهم يعرفون شروح التوراة وغوامضها ويرفضون ما عدا ذلك بتعصب أصبح سمة عامة لهم(٨٢). وتذكر الأناجيل أنهم كانوا من ألد أعداء المسيح (عليه السلام) وكانوا على رأس المتآمرين به. ولم ينفكوا

يكيدون له حتى حكم عليه بالصلب(٨٣). وقد ندد المسيح بهم: (ويلكم أنتم أيها النامسيون لأنكم حملتم الناس أحمالاً عسيرة الحمل)(٨٤) كما وصفهم الإنجيل بأنهم متزمتون عن جهل في الدين وتنطّع وبأنهم يحرفون النصوص التافهة ليخرجوا منها بنتائج جافة(٨٥). وبسبب حبهم للقيادة كانوا وراء القلاقل والثورات والمذابح التي تعرض لها اليهود(٨٦). وقد قرّعهم المسيح (عليه السلام) ووصفهم بأسوأ الأوصاف كاشفاً عن كفرهم ونفاقهم وتحريفهم للتوراة وابتداعهم تعاليم وأحكام فاسدة(٨٧).

ب) الصدوقيون(٨٨):

وهي تلي فرقة الفريسيين في الأهمية. وكانت تخالفها في أنها لا تعترف الا بالعهد القديم وترفض الأخذ بالأحاديث الشفوية المنسوبة إلى موسى (عليه السلام) والتي الّفها فقهاء الفريسيين(٨٩).

وجاء في الإنجيل: (أن الصدوقيين الذين ينكرون القيامة جاؤوا إلى المسيح قائلين له: يا معلم لقد قال موسى إذا مات أحد وليس له أولاد ذكور يتزوج أخوه امرأته لتلد ابناً ينسب إلى أخيه ويخلد ذكره.. والعجب لكم كيف تنكرون قيامة الأموات.. فلما سمعوا منه ذلك بهتوا من حجته وسُرَّ الفريسيون لأنه أفحم الصدوقيين)(٩٠).

وكانت هذه الفرقة تقول أن العزير ابن الله. فقد ذكرهم القرآن الكريم: (وقالت اليهود عزير ابن الله)(٩١).

وتحرص هذه الفرقة على إقامة علاقات ودية مع الشعوب الأخرى

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك: (ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك)(٩٢).

ج: القراؤون(٩٣):

وهي أحدث الفرق اليهودية ظهوراً. ويقوم مذهبها على التمسك بما جاء في العهد القديم وحده (التوارة)(٩٤) وعدم الاعتراف بأحكام التلمود وتعاليم الربانيين والأحبار.

وقد مهد لظهور فرقة القرائين الاصلاحي سيريفوس، وهو يهودي من الشام نادى بترك تعاليم التلمود عام ٧٢٠م أي في خلافة يزيد بن عبدالملك. وكادت تحدث فتنة كبيرة في الدولة الأموية بسبب ذلك فقبض عليه وسلمه الخليفة الأموي إلى اليهود ليتولوا محاكمته(٩٥).

وأيضاً مهد ظهور الإصلاحي عوبديا وهو يهودي من أصفهان نشأة القرائين. فسار على خطى سيرينوس بعدم الاعتراف بالتلمود، وادخل اصلاحات على الأحكام التوراتية عام ٧٥٠م. وقد أشار ابن حزم إلى هذه الطائفة وذكر أن أصحابها يقرون بنبوة عيسى ونبوة محمد (عليهما السلام)(٩٦).

وقد استفحل الخلاف بين القرائين والفريسيين (الربانيين). فيذكر المقريزي أنهم لم يكونوا يتزوجون من بعضهم البعض، ولم يكونوا يأكلون من ذبائح بعض(٩٧). واختلفوا أيضاً في مواعيد أعيادهم وفي حرمة السبت وبعض المسائل الشرعية كالقصاص والوراثة(٩٨).

بطبيعة الحال يرتبط وجود دور عبادتهم (كنسهم) بمناطق استقرارهم. لكن المصادر العربية لا تسعف الباحث في مجال الكتابة عن دور عبادة اليهود (الكنس) في الفترة الأموية. ويبدو أنها قد تعرضت للهدم في الفترة البيزنطية وأما ما بقي منها أثناء الفتوحات الإسلامية فقد شملتها عهود الصلح التي تنص على المحافظة عليها من الهدم، شأنها في ذلك شأن كنائس النصارى. ومما يدعم هذا الرأي أن المصادر لم تشر إلى هدم كنس لليهود أو الاستيلاء عليها أو على أجزاء منها لتحويلها إلى مساجد. ولذلك فإن هذه الكنس لا بد أنها كانت تكثر في بلاد الجليل في جوار بحيرة طبريا وفي الناصرة حيث يشكل اليهود أكثرية السكان(٩٩).

وبما أن اليهود كانوا يقيمون أيضاً في أريحا واذرعات وجرش وعسقلان، فمن المعقول الاستنتاج بأنه كانت لهم كنس فيها. ويذكر احسان عباس وجود بقايا كنس يهودية في الحمة وعسفيا (الكرمل)(١٠٠).

ويذكر أبوالفدا أن المغول عندما استولوا على حلب كان كنيس اليهود أحد البيوت التي أمن اللائذون بها من الذبح(١٠١)، مما يبين أن دور عبادة اليهود بقيت حتى بعد زمن الأمويين.

مناطق استقرار السامرة في بلاد الشام في الفترة الأموية

عرفت هذه الطائفة بهذا الاسم لسكناها مدينة شمرون (سمرون) وهي مدينة نابلس(١٠٢). وكانت السامرة عاصمة مملكة إسرائيل المنشقة عن المملكة اليهودية بعد وفاة سليمان (عليه السلام). ونابلس هي التي كانت تسمى قبل وصول اليهود إلى فلسطين باسم (شكيم) ويشرف عليها جبل جرزيم، المقدس الذي تقول التوراة أن يعقوب (عليه السلام) قد بنى فيه معبداً مكرساً للرب، وسماه (بيت ايل: أي بيت الله) ويزعم السامريون أن موسى (عليه السلام) كان يجعل قبلته في صلاته نحو (بيت ايل). ويزعمون أنهم البقية الباقية على الدين الصحيح، فيؤمنون باله واحد وبأن موسى رسول الله وخاتم رسله، والإيمان بتوراة موسى. أي أنهم لا يؤمنون بنبوة الأنبياء بعد موسى (عليه السلام) ولا يؤمنون بالأسفار التي جاءت بعد توراة موسى في العهد القديم، باستثناء يوشع بن نون صاحب موسى وخادمه لأن موسى عهد إليه بالخلافة من بعده ليعبر باليهود إلى فلسطين(١٠٣).

ويقول اليهود المعتدلون عنهم أنهم بقايا اليهود من الجهلة والضعفاء الذين ظلوا في فلسطين بعد السبي البابلي. ويبالغ بعض الربانيين والقرائين فيقولون أن منشأهم مشروح في سفر الملوك الثاني: (..وجلا إسرائيل عن أرضهم إلى آشور.. وأتى ملك آشور بقوم من بابل وكوت وعوا وحماة وسفروائيم واسكنهم في مدن السامرة مكان بني اسرائيل، فامتلكوا السامرة واستوطنوا مدنها)(١٠٤) ولذلك اطلقوا عليهم اسم

(شومارنيم) أي أنهم أخلاط من الجوييم الأجانب المتعاونين مع أعداء اليهود وأحياناً يسمونهم (الكوتيين) أي الذين جاؤوا مع الآشوريين من كوث(١٠٥).

وفي رواية للبيروني أن السامريين: أعانوا نبوخذ نصر ودلوه على نقاط الضعف عند اليهود حين غزا مملكة يهوذا وسبا اليهود إلى بابل. لذلك لم يمسهم بأذى فيقول: (وكانت السامرة أعانوه ودلوه على عورات بني إسرائيل فلم يحركهم ولم يقتلهم ولم يسبهم وأنزلهم فلسطين من تحت يده)(١٠٦).

كما يذكر المقريزي: أنهم ليسوا من بني إسرائيل وإنما هم قوم أتوا من الشرق إلى فلسطين وتهودوا(١٠٧).

أما السامريون فيسمون أنفسهم (شمرنيم) أي المحافظين على دين موسى (عليه السلام) ويلقبون أنفسهم (بأبناء إسرائيل) وينسبون أنفسهم إلى هارون (عليه السلام) أخي موسى (عليه السلام) وينتخبون كاهناً أعظم يسمونه (الكاهن اللاوي). ولاوي هو الجد الذي انحدر منه موسى وهارون (عليهما السلام)(١٠٨).

واصبحت هذه الطائفة منعزلة عن المجتمع اليهودي بعد رجوع اليهود من السبي البابلي، وبنوا لأنفسهم هيكلهم الخاص على جبل جرزيم بنابلس في القرن الرابع الميلادي(١٠٩).

لم يمنح الرومان الأقلية السامرية الامتيازات التي منحوها لليهود، فلم يعتبروهم طائفة دينية. فمنعوا من ختان أولادهم. وفي أيام الإمبراطور ديوقلتيان أجبروا على تقديم القرابين للآلهة كالوثنيين.

لذلك كانوا جماعة قلقة في العصر الروماني(١١٠). ولكن أحلك فترات تاريخهم جاءت بعد اتخاذ الرومان الديانة النصرانية ديانة رسمية للدولة فتفاقم اضطهاد البيزنطيين لهم، فقاموا بثورة زمن الإمبراطور زينون (٤٧٤-٤٩١م) فنكل الرومان بهم وطردوهم من جبل جرزيم، وبنيت فيه كنيسة. وثاروا مرة أخرى زمن الإمبراطور جوستنيان (٥٢٧-٥٦٥م) وقضي على ثورتهم ونكّل بهم ودمر معبدهم، وتشاركوا مع اليهود في ثورة عام ٥٧٨م، وكانت كلها ثورات يائسة محكوم عليها بالفشل وبالمذابح التي كادت تؤدي بهم إلى الإنقراض(١١١) وكان مركزهم (كما هو اليوم) في نابلس، ولهم امتداد في قيساريه وبيسان حيث عملوا في الزراعة والتجارة والحرف المتنوعة(١١٢).

طوائفهم: السامرة في بلاد الشام

يذكر الشهرستاني أن السامرة فرقتان: دوستانيه وكوستانيه. تزعم الأولى أن الثواب والعقاب في الدنيا، بينما تقر الكوستانيه (الصادقة) بالآخرة(١١٣).

دور عبادة السامرة:

يؤمن السامريون بأن جبل جرزيم المطل على نابلس هو المكان المقدس الحقيقي، وأن يعقوب (عليه السلام) بنى معبده المكرس للرب في هذا الجبل وسماه (بيت ايل: أي بيت الله) وأن موسى (عليه السلام) كان يجعل قبلته نحو بيت ايل، لذلك أقام السامريون هيكلهم المقدس على هذا الجبل المقدس. وهم يتجهون إليه في صلاتهم حيثما كانوا ويقدمون عليه الأضاحي(١١٤).

هوامش الفصل الثاني

(١) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٦٦، محمد البطاينة، العلاقة بين النصارى العرب وحركة الفتح، ص٤.

(٢) ابن البطريق، التاريخ المجموع، ص ٦.

(٣) ابن العبري، تاريخ، ص ٧٦، الاصفهاني، تاريخ ملوك الأرض، ص ٦٥.

(٤) اليعقوبي، تاريخ، ج ١، ص ٧٤.

(٥) ابن البطريق، التاريخ المجموع، ص١٨٢.

(٦) البلاذري، فتوح، ص ١٣٧.

(٧) ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق، ج ٦، ص ٦٤.

(٨) البلاذري، فتوح، ص ١٣٣، ابن الأثير، ج ٢، ص ٤٣٣.

(٩) ابن الأثير، ج ٢، ص ٤٩٢.

(١٠) ابن أعثم، فتوح، ج ١، ص ١٤٠.

(١١) ابن الأثير، ج٢، ص٤٩٦.

(١٢) الطبري، تاريخ، ج٣، ٤٠٥-٤٠٦.

(١٣) اليعقوبي، البلدان، ص ٣٢٥.

(١٤) نصر بن مزاحم، موقعة صفين، ص٢٣٢، الدينوري، الاخبار الطوال، ص١٧٢.

(١٥) الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص٦٦، (تيزين قرية كبيرة من نواحي حلب)، (انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٦٦).

(١٦) البلاذري، فتوح، ص١٦٦، ١٦٥.

(١٧) ابن منظور، لسان العرب، مادة نبط.

(١٨) البلاذري، فتوح، ص١٥٦.

(١٩) ابن عساكر، تهذيب، ج١، ص٢٣١.

(٢٠) البلاذري، فتوح، ص١٧٦-١٨٢.

(٢١) الهمذاني، صفة جزيرة العرب، ص٢٧٦، نجيب، عامر، استقرار القبائل، ص٣٨، خريسات، محمد، دور العرب المتنصرة، ص١٢٢.

(٢٢) ابن العبري، تاريخ، ص٧٩، نورمان بنز، الإمبراطورية البيزنطية، ص٨.

(٢٣) الطبري، تاريخ، ج٢،ص١٧٥، النويري، نهاية الأرب، ج١٥،ص٢١٧.

(٢٤) اليعقوبي، تاريخ، ج١، ص١٥٢.

(٢٥) شلبي، رؤوف، يا أهل الكتاب، ص٢٢٥-٢٢٨.

(٢٦) ابن البطريق، التاريخ المجموع، ص١٨٣.

(٢٧) شلبي، رؤوف، يا أهل الكتاب، ص٢٢٤.

(٢٨) عباس، احسان، تاريخ بلاد الشام، ص١٥٣.

(٢٩) ترتون، أهل الذمة في الإسلام، ص٤١.

(٣٠) الحسن بن طلال، المسيحية في العالم العربي، ص٦١.

(٣١) شلبي، رؤوف، يا أهل الكتاب، ص٢٣٠.

(٣٢) ابن البطريق، التاريخ المجموع، ص١٨٣، سعيد عاشور، أوروبا في العصور الوسطى، ج١، ص٥٥، فايزة حجازي، أهل الذمة في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي، ص١٣٢.

(٣٣) ابن البطريق، التاريخ المجموع، ص١٨٣.

(٣٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٢٨٢.

(٣٥) نجار، نهى، موسوعة الأديان، ص١٨١.

(٣٦) الأمير الحسن بن طلال، المسيحية في العالم العربي، ص٦١-٦٤.

(٣٧) شلبي، رؤوف، يا أهل الكتاب، ص٢٣٢.

(٣٨) الأمير حسن بن طلال، المسيحية في العالم العربي، ص٦٧-٦٨.

(٣٩) العدوي، إبراهيم، الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية، ص٦٣، الأمير الحسن بن طلال، المسيحية في العالم العربي، ص٦٩.

(٤٠) أبويوسف، الخراج، ص٨٢.

(٤١) ترتون، أهل الذمة في الإسلام، ص٣٥-٣٧.

(٤٢) الطبري، تاريخ، ج٢، ص٦٠٣.

(٤٣) البلاذري، فتوح، ص١٣٧.

(٤٤) الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ج٥، ص١٧٦.

(٤٥) الحموي، ياقوت معجم البلدان، ج٩، ص٤٦.

(٤٦) محمد كرد علي، خطط الشام، ج٩، ص٣.

(٤٧) ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ص٥١.

(٤٨) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج١، ص١٧٨.

(٤٩) ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق، ج١، ص٢٠١.

(٥٠) ابن شداد، الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ص٥٥.
(٥١) ابن رسته، الاعلاق الخطيرة، ص٨٣.
(٥٢) ترتون، أهل الذمة في الإسلام، ص ٤١.
(٥٣) الطبري، تاريخ، ج ٢، ص ٣٧١.
(٥٤) الشابشتي، الديارات، ص ٣١.
(٥٥) أبو يوسف، الخراج، ص ١٦٥.
(٥٦) الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ج ٢، ص ٥١٩.
(٥٧) الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ج ٢، ص ٥١٩.
(٥٨) حمارنة، صالح، المسيحية في ارض الشام، ص ٥٥٧ ((اعتماداً على الحفريات الأثرية الحديثة التي قامت هناك))
(٥٩) ساويرس، سير البطاركة، ص ١٤٤.
(٦٠) Theophanes. Chronele. pp. 93 - 94. (يبين ثيوفانيس أنه في عام ٧٢٦م/١٠٨هـ، أصدر الإمبراطور ليو الأيسوري (٧١٧م/٧٤١ك) مرسوماً يطلب فيه إزالة جميع الصور والتماثيل الدينية والأيقونات من الكنائس، ورافق ذلك تحطيم الصور والأيقونات في بلاد الشام). أنظر Theophanes. Chronele. pp. 93 - 94..
(٦١) Fisher. W.B. The Middle. pp. 118.
(٦٢) Fisher. W.B. The Middle. pp. 118.
(٦٣) عباس، احسان، تاريخ بلاد الشام، ص ٨٠.
(٦٤) E.B. Art. Syria. History of Syria.
(٦٥) E.B. Art. Syria. History of Syria.
(٦٦) التلمحري، ديونيسيوس، التاريخ المنحول، ص ٧ – ٨ من الترجمة العربية.
(٦٧) ابن البطريق، التاريخ المجموع، ص ٦.
(٦٨) ترتون، أهل الذمة في الإسلام، ص ٩٩.
(٦٩) الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٦٠٩.
(٧٠) الواحدي، أسباب النزول، ص ٢٢٣.
(٧١) البلاذري، فتوح، ص ١٣٣.
(٧٢) البلاذري، فتوح، ص ١٤٣.

(٧٣) التطيلي، بنيامين، رحلة التطيلي، ص ٩٩. (مع الأخذ بعين الاعتبار أن بنيامين التطيلي قد عاش في فترة متأخرة عن فترة البحث، (القرن السادس الهجري)، ولكن هذا يدل على أن اليهود بقوا في القدس حتى بعد الفترة الأموية).
(٧٤) البلاذري، فتوح، ص ١٣٣.
(٧٥) الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ٦٠٩.
(٧٦) عباس، إحسان، تاريخ، ص١٦١.
(٧٧) التلموذ: كتاب أحبار اليهود وفقهائهم وربانيهم في شؤون العقيدة والشريعة والتاريخ المقدس وتقع في ٦٣ سفراً، الموسوعة الفلسطينية، ج١، ص٥٧٢.
(٧٨) المشنا: عبرية تعني تفسير التوراة، وتطلق على سنة موسى (عليه السلام) الشفهية وهو ما أوحى به الله تعالى لموسى خلال الأربعين يوماً التي قضاها في طور سيناء وأمره أن لا يكتبها وأن يبلغها شفوياً: (الموسوعة الفلسطينية، ج١، ص٧٢).
(٧٩) وافي، علي عبدالواحد، اليهودية واليهود، ص٩١-١٠٩.
(٨٠) ظاظا، حسن، الفكر الديني الإسرائيلي، ص٢٤٣.
(٨١) سورة المائدة: آية ٤٤.
(٨٢) ظاظا، حسن، الفكر الديني الإسرائيلي، ص١٠٨.
(٨٣) انجيل متى: الاصحاح ٢٢.
(٨٤) انجيل لوقا: الاصحاح ١١.
(٨٥) ظاظا، حسن، الفكر الديني الإسرائيلي، ص٢٥٤.
(٨٦) ظاظا، حسن، المرجع السابق، ص٢٥٥.
(٨٧) انجيل متى: الاصحاح ٢٣.
(٨٨) صدوقيم تعني العدالة والأبرار أو أهل العدل انظر: علي وافي، اليهودية، ص٩٤.
(٨٩) وافي، علي عبدالواحد، اليهودية واليهود، ص٩٤.
(٩٠) إنجيل متى: الاصحاح ٢٢.
(٩١) سورة التوبة: آي ٣٠.
(٩٢) سورة آل عمران: آية ٧٥.
(٩٣) اسمهم من المصدر العبري قُرا بمعنى قرأ أو دعا: وذلك لأنهم لم يؤمنوا بغير

((المقرا)) أي ما يقرأ فيه وهي التوارة. (وافي، علي، اليهودية، ص١٠٥).

(٩٤) التوراة هي: الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم (التكوين، الخروج، والتثنية، والعدد، واللاويين)، (دائرة المعارف الإسلامية، مادة التوراة)

(٩٥) وافي، علي عبدالواحد، اليهودية واليهود، ص١٠٥.

(٩٦) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج١، ص٨٢.

(٩٧) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج٢، ص٤٧٢.

(٩٨) قاسم عبده قاسم، أهل الذمة في مصر، ص١١١.

(٩٩) لامنس، هنري، فتح العرب سورية (مقال، مجلة المشرق. عام ١٩٢٢ص١٤.

(١٠٠) عباس، احسان، تاريخ، ص١٦٠-١٦١

(١٠١) أبي الفداء، المختصر في تاريخ البشر، ص١٧١، ترتون، أهل الذمة، ص٦٠.

(١٠٢) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج٣، ص٥٠٨، دائرة المعارف الإسلامية، مادة سامرة.

(١٠٣) حسن ظاظا، الفكر الديني الإسرائيلي، ص٢٤٨.

(١٠٤) التوارة (العهد القديم): سفر الملوك الثاني: الاصحاح ١٧.

(١٠٥) حسن ظاظا، الفكر الديني الإسرائيلي، ص٢٤٨.

(١٠٦) البيروني، الآثار الباقية في القرون الخالية، ص٢١.

(١٠٧) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٣،ص٥٠٨.

(١٠٨) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٢٧١.

(١٠٩) E.B.Art. Samaritan.

(١١٠) عباس، احسان، تاريخ بلاد الشام، ص١٦١.

(١١١) التلمحري، ديونيسيوس، التاريخ المنحول، ص٧،٨.

(١١٢) E.B.Art. Samaritan.

(١١٣) الشهر ستاني، الملل والنحل، ص٩٨، دائرة المعارف الإسلامية، مادة سامرة.

(١١٤) الشهرستاني، الملل والنحل، (ص٩٥)، دائرة المعارف الإسلامية، مادة سامرة، ظاظا، حسن، الفكر الديني الإسرائيلي، ص٢٤٨.

الفصل الثالث

علاقة أهل الذمة بمؤسسات الدولة الأموية ببلاد الشام

أولاً: الإدارة

إذا كان عمر بن الخطاب (ر.ض) قد ترك تصريف الشؤون المحلية للسكان من أهل الذمة(١)، فإنه كره استخدام غير المسلمين في الأمور المتعلقة بالمسلمين(٢). أما معاوية بن أبي سفيان فإنه رأى منذ أن كان والياً على الشام أن النصارى من العرب والنبط وبقايا الروم يشكلون أكثرية السكان. وكان منهم أصحاب الحرف والموظفين والكتاب والأطباء. ورأى بحنكته الإدارية أنه لا يمكن الإستغناء عنهم في إدارة الولاية فأبقاهم في وظائفهم وقرب إليه النابهين منهم كأسرة سرجون بن منصور التي ظلت تتوارث الإدارة المالية بين أبنائها(٣).

وعندما آلت الأمور للامويين، تابعوا سياستهم الإدارية التي أرسى قواعدها معاوية بن أبي سفيان من حيث الإستعانة بأهل الذمة في جميع الولايات سواء كانوا مجوساً (في فارس) أو نصارى (في الشام ومصر).

فكان زادان فروخ يكتب لزياد بن أبيه(٤) في العراق، واسطفانوس لعبد الرحمن بن زياد في خراسان(٥). وكتب ابن بطريق وهو من نصارى فلسطين لسليمان بن عبد الملك، وهو الذي اشار عليه ببناء الرملة(٦). وقبل ذلك عيّن معاوية ابن أبي سفيان طبيبة ابن آثال عاملاً على خراج حمص(٧). ومن كتاب هشام بن عبدالملك تاذري بن أسطين وقلّده ديوان حمص(٨) أيضاً. وعندما توجه عبد العزيز بن مروان والياً لأخيه على مصر أخذ معه من نصارى الشام يناس بن خمايا والمعروف باسم اثناسيوس الرهاوي ليكون كاتباً له في مصر(٩).

وكان لعبد الملك بن مروان كاتب نصراني من أواسط كتابه اسمه شمعل(١٠). وكذلك كتب لهشام بن عبد الملك ذميّ هو حسان النبطيّ(١١).

وبالرغم من أن اللغة العربية أصبحت لغة الدواوين في عهد عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ) في جميع ولايات الدولة، فقد أورد ابن العبري: (أن عبد الملك منع الكتّاب النصارى من أن يكتبوا الدفاتر بالرومية ولكن بالعربية)(١٢). وهذا دليل على أن الكتّاب النصارى الذين يجيدون العربية قد بقوا في وظائفهم) ويؤكد المقدسي ذلك فيذكر أن الكتّاب في بلاد الشام كانوا من النصارى(١٣). أما ترتون فيقول: (وقلما خلا ديوان من دواوين الدولة من النصارى)(١٤) ويضيف ترتون: أن ثيودوسيوس، وهو من الملكانيين البارزين، رحل إلى دمشق حيث دفع إلى يزيد بن معاوية مبلغاً من المال، وعاد حاملاً معه مرسوم توليته حاكماً على الإسكندرية ومريوط والمناطق التابعة لهما(١٥). أما دانييل دينيت فيورد: (كان ثيودور والياً على الإسكندرية، وكان أخوه بطرس والياً على الصعيد. وقد أسلم كلاهما في أواخر ولاية عبد العزيز بن مروان)(١٦).

أمّا طرد أهل الذمة من أعمالهم الإدارية في خلافة عمر بن عبد العزيز، فقد كان لفترة زمنية قصيرة. (سنتين وخمسة شهور) (٩٩ - ١٠١هـ) فقد كره عمر بن عبد العزيز أن تكون يد الذمي هي العليا فيكون له سلطان على المسلمين. وذكر ابن عبد الحكم أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عماله: (أن المسلمين استعانوا في بادئ الأمر بأهل

الذمة لعلمهم بالجباية والكتابة والتدبير، فكانت لهم في ذلك مدة قضاها الله... فلا أعلم كاتباً أو عاملاً في شيء من عملك على غير دين الإسلام إلا عزلته واستبدلت مكانه رجلاً مسلماً)(١٧). وقد أشار ساويرس إلى ذلك بأن عمر (يفعل السوء أمام الله)(١٨) ويقصد بذلك أن قراره دفع الكثيرين من أهل الذمة إلى اعتناق الإسلام كي لا يفقدوا وظائفهم. غير أن القرار لم يستمر بعد وفاته. فقد عاد هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ) للاستعانة بأهل الذمة من جديد. واستمرت استعانة الأمويين بهم في أعمالهم حتى نهاية العصر الأموي، واستمرت في العصر العباسي وبعده(١٩).

ومما يلفت الانتباه أننا لا نرى ذكراً لاستخدام اليهود في الإدارة الأموية. ويعلل الجاحظ ذلك بسوء العلاقة بين المسلمين واليهود منذ مجاورتهم لهم في المدينة المنورة حيث خبروا منهم المكر والخديعة، بينما استعانوا بالنصارى في الشام ومصر لأنهم يحمدون لهم حسن وفادتهم للمهاجرين الأوائل إلى الحبشة، ولأن النصرانية كانت منتشرة بين القبائل العربية من لخم وغسان وقضاعة وطيئ وتغلب، ولم تكن اليهودية منتشرة أو غالبة على قبيلة عربية. ويضيف الجاحظ أن النصارى كان منهم الكتاب والأطباء والأشراف والعطارين والصيارفة بينما لم يكن من اليهود الا الصباغين والدباغين والقصّابين والحجامين(٢٠).

فإذا تذكرنا موقف الدولة البيزنطية من اليهود واضطهادها لهم واعتمادها على النصارى في الحكم والإدارة، فقد كان الغساسنة

أمراء في ظل البيزنطيين، وكان من النصارى الكتاب والجباه والولاة، يكون من الطبيعي قبول تعليل الجاحظ في اعتماد الأمويين على أهل الذمة الذين مارسوا هذه الإدارة منذ وقت بعيد قبل الفتح الإسلامي واستمرار تعيين الأكفياء من أهل الذمة إلى نهاية العصر الأموي.

ولعل في ما ذكرناه سابقاً يدحض ما زعمه بعض المستشرقين مثل فان فلوتن وفلهاوزن بأن الدولة الأموية كانت دولة عنصرية لا تستخدم سوى العرب ولا تعتمد إلا عليهم(٢١). فقد أوردنا استخدامها لعمال بيزنطيين وفرس وقبط، ويؤكد ذلك ترتون الذي يذكر أن الأمر وصل إلى حد أن النصارى من روم وقبط ونبط وعرب كانوا يشغلون مناصب الكتابة والولاية وحكم الأقاليم نيابة عن العرب في الدولة الأموية(٢٢). ويؤكد هذا محاولة عمر بن عبد العزيز إعادة الأمر إلى نصابه، فجاء في كتابه: (فلا تولين أمور المسلمين أحداً من أهل الذمة فتبسط أيديهم وألسنتهم، وتذلهم بعد أن أعزهم الله وتهينهم بعد أن أكرمهم الله تعالى، وتعرضهم لكيدهم والاستطالة عليهم، ومع هذا فلا يؤمن غشهم إياهم...)(٢٣).

وهذا يبين ان محاولة عمر بن عبد العزيز نتجت عن تطاول بعض العمال الذميين على المسلمين وتعاليهم وسوء معاملتهم للمسلمين، وأن بعضهم كان يكيد للمسلمين ويغشهم.

ثانياً: الجيش

جاءت أول إشارة إلى مشاركة الذميين في القتال إلى جانب المسلمين عند البلاذري. فذكر أن الشاعر النصراني أبازبيد الطائي حارب مع

المسلمين في معركة الجسر، وكان اشتراكه في القتال بدافع الحمية العربية(٢٤).

وفي المعاهدة التي أبرمها سراقة بن عمرو عام ٢٢ هـ مع أرمينيا أنه اشترط على أهلها أن يشتركوا إلى جانب المسلمين في قتالهم ضد البيزنطيين بدلاً من دفعهم الجزية(٢٥). وتكرر الأمر مع جراجمة الشام فصالحوا حبيب بن مسلمة على: (أن يكونوا عيوناً ومسالح في جبل اللكام، وأن لا يؤخذوا بالجزية، وأن يغفلوا اسلاب من يقتلون من أعداء المسلمين اذا حضروا معهم في معاركهم.)(٢٦) وفي ولاية معاوية على الشام، وردت أول إشارة للصقالبة إذ أنه لما أرسل أبو ذر الغفاري إلى المدينة بأمر عثمان يقول المسعودي: (فحمله على بعير عليه قتب يابس معه خمسة صقالبة يطردون به حتى أتوا المدينة.)(٢٧).

وهذا يبين أن من بين جند معاوية أو حرسه كانت مجموعة من الصقالبة. وذكر الطبري أثناء الحديث عن معركة ذات الصواري: أن أبن أبي السرح غضب من محمد بن أبي حذيفة، ومحمد بن أبي بكر فمنعهم من الركوب معه، فركبوا في مراكب ليس فيها أحد من المسلمين وليس فيها إلا القبط(٢٨). وهذا يعني استعانة المسلمين بالقبط في معركة ذات الصواري الهامة.

أما بعد تولي الأمويين الحكم عام ٤٠ هـ وما بعدها فإن مشاركة الأكفياء من أهل الذمة في الجيوش الأموية لحاجة الدولة إلى خبراتهم ومهارتهم كانت في مختلف أنحاء الدولة الأموية، في الشام ومصر والعراق وبلاد فارس على حد سواء(٢٩).

ويرد ذكر الصقالبة في خلافة معاوية بن أبي سفيان كمجموعات في الجيش الأموي. ففي حولية ثيوفانيس: في عام (٦٦٤م ٤٤هـ) هاجم عبد الرحمن بن خالد الأراضي البيزنطية وتوجه الصقالبة لمحاربته فانضم اليه منهم خمسة آلاف، توجه بهم إلى سوريا (٣٠).

وفي رواية أخرى لثيوفانيس: (أن مجموعة من الصقالبة وأثناء المعركة بين الجيشين الأموي والبيزنطي عام (٦٩٣م / ٧٣هـ) انضمت للعرب. أو كما يقول ثيوفانيس قام القائد العربي برشوة قائد الصقالبة بكمية من الذهب فضم إليه عشرين ألفاً من الصقالبة.... ودخلوا معه الشام، وأنزلهم الخليفة عبد الملك بنواحي أنطاكية وقورس) (٣١). ويوضح البلاذري ان حصن سليمان سمي كذلك نسبة إلى قائد من الصقالبة(٣٢). وبغض النظر عن العدد الذي قد يكون ثيوفانيس قد بالغ فيه فإن الأمويين استفادوا من هؤلاء الصقالبة في هجماتهم التالية على البيزنطيين وكما يقول ثيوفانيس: (أنه في عام ٦٩٤م / ٧٤هـ) هاجمهم المسلمون رومانيا وكان الصقالبة معهم في المعركة. وبسبب درايتهم بارض البيزنطيين تحقق النصر للعرب) (٣٣).

وبقي الصقالبة في الشام واندمجوا في المجتمع وأسلموا، واستمروا بعملهم في الجيش حتى نهاية الدولة الأموية، بل شاركوا في القتال إلى جانب عبد الله بن علي ضد المنصور عام ١٣٧هـ(٣٤).

ويذكر البلاذري عن مشاركتهم في الدفاع عن حصن الخصوص وهو من الثغور الشامية فيقول: (أهله فرس وصقالبة وأنباط نصارى وكان مروان أسكنهم إياه) (٣٥).

ويذكر البلاذري أن الأمويين استعانوا في جيوشهم بالصقالبة والفرس ونبط أنطاكية وفي رواية أخرى يقول: (أن عبد الملك بن مروان فرض لقوم من أهل انطاكيا وأنباطها، وجعلوا مسالح، وأردفت بهم عساكر الصوائف فسموا بالرواديف) (٣٦). ومما يعزز هذا الرأي وصف يزيد بن المهلب لجيش الشام عندما أرسله الأمويون لمحاربته عام ١٠١هـ بقيادة مسلمة بن عبد الملك، وهو وصف يصور عناصر الجيش واستهانته بهم فيقول: (برابرة وصقالبة وجرامقة وأقباط وأنباط وأخلاط... فلاحون أوباش) (٣٧) ويكفينا هذا الوصف الذي يجعل الجيش الأموي الشامي الموجه ضد يزيد مزيجاً من أبناء مختلف الطوائف من أهل الذمة ومن غير العرب).

ويذكر ترتون أن الوثائق البردية التي اكتشفت حديثاً تذكر الكثير من الأسماء غير العربية التي حارب أصحابها من الجند النصارى في جيوش الدولة الأموية. وهم من القبط واليونان(٣٨). ويذكر ابن سعد: (إصرار عمر بن عبد العزيز على وجوب حضور الذميين في الجيوش) (٣٩).

ويذكر البلاذري: أنه في إحدى غارات الروم على شمال الشام، انحاز بعض سكان الشام لهم. فنادى منادي جيش عبد الملك بن مروان: من جاءنا ممن كان مع اولئك القوم فهو حر، وله أن نثبته في الديوان فانفضّ اليه جمع غفير منهم وقاتلوا معه. ففرض لهم وجعل لهم ربعاً خاصاً بهم، فأصبحوا يسمون (بالفتيان) (٤٠).

أما الموالي وهم المسلمون من غير العرب الذين ارتبطوا بقبيلة أو

بشخص عربي بعد إسلامهم، ولم يسبق لأحدهم أن استرق، وكان جلهم من العجم، وكان انتسابهم للقبائل العربية يهدف لضمان مكانتهم الإجتماعية ولحماية أنفسهم(٤١). فإنهم شكّلوا فرقاً كاملة في الجيش الأموي بأفرادها وقادتها، منها فرقة الشاكرية: وهم غلمان القادة مثل شاكرية ثابت قطنه التي شاركت في حرب الخوارج أيام الحجاج بن يوسف(٤٢). وفرقة الذكوانيه نسبة لمسلم بن ذكوان مولى يزيد بن الوليد(٤٣). ومنها أيضاً الأساورة الذين ذكر البلاذري عنهم أن عمر بن الخطاب فرض لهم شرف العطاء(٤٤) ونقلهم معاوية بن أبي سفيان إلى سواحل الشام للدفاع عنها أمام البيزنطيين، فأسكنهم أنطاكية(٤٥). ويذكر الطبري عن جيش مروان بن محمد في الزاب أنه: (كان فيه ثلاثة آلاف من المحمرة، ومعه الذكوانية والصحصحية والراشدية)(٤٦). وهذه كلها فرق من الموالي المسلمين من غير العرب.
وأحياناً كان الموالي يشاركون في القتال فور انضمامهم إلى جيوش المسلمين كما فعل الأساورة والمحمرة والصقالبة. وفي كثير من الحالات كانت تسند قيادة الجيش وحتى الولاية للموالي مثل أبي المهاجر دينار الذي تولى أفريقية عام ٥٥ هـ، وطارق بن زياد القائد المشهور وكان مولى لموسى بن نصير وعلى مقدمة جيشه لفتح الأندلس(٤٧).
ونستنتج مما سبق أن الدولة الأموية لم تكن متعصبة للعرب كما يدعي بعض المستشرقين مثل فلهاوزن وفان فلوتن، فعناصر جيوشها لم تكن مقتصرة على العنصر العربي. فأهل الذمة والموالي من الفرس والروم والقبط والنبط والبربر...الخ كانوا يشاركون فيها كجند وقادة. ولم تكن مقتصرة على المسلمين فقد شارك فيها النصارى من الذميين من

أصل روميّ وعربيّ وأرمنيّ وقبطيّ وصقلبيّ.. الخ، بالإضافة إلى البربر والترك والأكراد والزط.

ثالثاً: الضرائب

أ) الجزية:

فرضت الجزية على أهل الكتاب بنص قرآنيّ(٤٨)، وطبقها الرسول (ص) في صلح أيله، وأذرح وجرباء من أرض الشام. فكانت ديناراً في السنة على كل حالم(٤٩). كما فرضها عليه الصلاة والسلام بعد عودته من غزوة تبوك عام (٩هـ) على أهل الذمة في الحجاز(٥٠) واليمن(٥١) ديناراً (على الرجال فقط). وأما نجران فكانت الجزية ألف حلة في صفر وألف حلة في رجب ثمن كل حلة أوقية فضة (أربعون درهماً)(٥٢). وألحق بأهل الكتاب مجوس البحرين فقبل منهم الجزية(٥٣). وفي خلافة أبي بكر فتح خالد بن الوليد بصرى وصالح أهلها على أن يؤدوا عن كل حالم ديناراً أو جريب حنطة(٥٤).

أما في خلافة عمر بن الخطاب وقد أخذت الفتوحات الإسلامية ترسخ الأقدام في العراق والشام ومصر. فجابهت المسلمين وعلى رأسهم الخليفة ذاته مسألة الأراضي المفتوحة. وهذا سبب عدم التمييز بين كلمتي جزية وخراج عند مؤرخي تلك الفترة. إذ التبس عند بعضهم مدلول الكلمتين، فكتبوا (جزية الأرض) و(خراج الرؤوس) أو استعملوا الكلمتين بمعنى واحد(٥٥). ولكن عبقرية عمر قادته للإستفادة من الأنظمة المالية المحلية، فجعل الجزية على الرؤوس (فقد وجدها ضريبة يدفعها العبد لسيده) والخراج (ضريبة يدفعها الزارع لمالك

الأرض) (وهم الفاتحون المسلمون)(٥٦).

وفي العصر الأموي اعتمدت الضرائب ومنها الجزية على ما ورد في عهود الصلح، فبصرى صالحت. (على كل رأس دينار في العام أو جريب(٥٧) حنطة)(٥٨) ومثل ذلك كان صلح فحل وإيلياء ولد(٥٩) وصولح السامرة على جزية رؤوسهم وأطعمهم أبو عبيدة أرضهم(٦٠).

وأيضاً كان صلح بيسان وطبريا؛ (على كل رأس ديناراً كل سنة وجريب برٍ أو شعير أي ذلك حرث)(٦١).

ويذكر ابن عساكر أن خالداً صالح أهل دمشق على دينارين وشيء من الطعام(٦٢)، بينما يذكر الطبريّ في روايته عن سيف أن صلح دمشق كان على المناصفة (المقاسمة) ودينار عن كل رأس(٦٣). بينما يذكر البلاذريّ في روايته عن الواقدي: أنه قرأ كتاب خالد بن الوليد لأهل دمشق فلم ير فيه (إنصاف المنازل والكنائس... ولكن عندما فتحت دمشق لحق كثير من أهلها بهرقل وهو في أنطاكية، فكثر فضول منازلها فنزلها المسلمون(٦٤) وفي هذا ما يبرر للدوريّ قوله أن روايات صلح دمشق لا تخلو من التعقيد(٦٥).

أما صلح حمص فتشير الروايات إلى أن الصلح الأول اقتصر على أخذ مبلغ من المال حدده أبو مخنف؛ (أن أهل حمص صالحوا أبا عبيدة على مائة وسبعين ألف دينار)(٦٦) ويؤكد على ذلك الأزدي فيذكر: (أن أهل حمص صالحوا المسلمين على أرض حمص كلها، على أن عليهم مائة وسبعين ألف دينار)(٦٧). ويخالف ابن أعثم روايتيهما

فيذكر أن الصلح في حمص كان: (على سبعين ألف دينار عاجلة، وعلى أداء الجزيةعن كل محتلم في كل سنة أربعة دنانير، وعلى أنهم يضيفون المسلمين إذا نزلوا بهم)(٦٨). أما بعد الفتح الثاني لحمص والذي جاء بعد دمشق واليرموك فقد ذكر البلاذري أنه كان: (على من أقام منهم الجزية والخراج)(٦٩) وأنه كان مثل صلح بعلبك(٧٠).

وقد جرى تعديل على مقدار الجزية بعد استقرار الأمور للمسلمين. فقد أورد البلاذري: (كانت الجزية بالشام في بادئ الأمر جريباً وديناراً على كل جمجمة، ثم وضعها عمر بن الخطاب على أهل الذهب (الأغنياء) أربعة دنانير، وجعلهم طبقات لغنى الغني وإقلال المقل وتوسط المتوسط)(٧١) ولعل هذا التعديل كان قد جرى بعد أن أحصى عمر بن الخطاب أهل الشام إحصاءً عاماً. ويذكر ثيوفانيس ذلك فيقول: (أنه في أيلول في عام ٦٣٩م و إلى آب عام ٦٤٠م (١٨ - ١٩هـ) أمر عمر بن الخطاب أن تدون مساحة كل البلاد التي تحت إمرته، فتم إحصاء الناس والمواشي والحاصلات الزراعية)(٧٢) كما يوضح ذلك دينيت فيقول: (أن الجزية في المدن كانت متدرجة وعلى ثلاث طبقات مسايرة في حالة المكلفين المادية. أما في الريف فكانت الجزية موحدة)(٧٣) ويوضح أبو يوسف بأن الحد الأعلى وهو أربعة دنانير وفرض على الأغنياء ودينارين على متوسطي الحال ودينار واحد على الفقراء)(٧٤). وهكذا فإن أهل الريف كانوا يدفعون الحد الأدنى من الجزية النقدية والطعام ومقداره مدي قمح وقسطي زيت وقسطي خل(٧٥). وبمقارنتنا جزية المدينة النقدية المتدرجة بجزية الريف الثابتة نكتشف أنهما يكادان أن يتساويا. ولكن ما خفف على الفلاحين

أن جزيتهم كانت تدفع من المحاصيل ولا يتكلفون من النقد سوى دفع دينار واحد(٧٦).

وجرى تعديل أمويّ على الجزية زمن عبد الملك بن مروان، حيث ذكر أبو يوسف أن التعديل شمل الجزيرة بالإضافة إلى الشام: (فكان على أهل الجزيرة أربعة دنانير، وذلك جعلهم في طبقة) (٧٧)وظل الحال كذلك حتى جاء عمر بن عبد العزيز ورفع الإجحاف عنهم وأعاد العمل بجزية الطبقات(٧٨).

وبالإضافة إلى ذلك رخص عمر بن عبد العزيز في أخذ العروض والحيوان مكان الجزية(٧٩). وسار على هذا الدرب أبو يوسف فرخص في أخذ الجزية عينياً حيث يقول: (إنهم إن جاؤوا بعرض مثل الدواب والمتاع قبل منهم وحسب قيمة ذلك) (٨٠).

ب) الخراج

لقد أوجدت الفتوحات الإسلامية مثل العراق وبلاد الشام ومصر مشكلة كبرى للفاتحين. وتمثلت المشكلة في تلك الأراضي الفسيحة التي وقعت في حوزة المسلمين ولم يشرع القرآن شيئا بشان الخراج بنص قرآني، ولم تكن هناك سوابق في عهد الرسول سوى خيبر التي عدل الرسول عن تقسيمها بين المسلمين باعتبارها غنيمة وفق آية الغنائم(٨١) (ودفعها إلى اليهود يعملونها على نصف ما خرج منها) (٨٢).

ويقول أبو يوسف: (وقد بلغنا أن الرسول (ص) ظهر على غير دارٍ

من مشركي العرب فتركها على حالها) (٨٣). ويقول أيضاً: (وقد بلغنا أن رسول الله (ص) افتتح فتوحاً من الأرض العربية، فوضع عليها العشر ولم يجعل على شيء منها خراجاً، فأجروا الأرض العربية كلها هذا المجرى) (٨٤).

أما في خلافة عمر بن الخطاب (ر.ض) فإن الصحابة وجماعة المسلمين طالبوا الخليفة بقسمة الشام كما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر(٨٥). واستشار عمر الصحابة من المهاجرين والأنصار واستقر رأيه على: (... فإذا قسمت أرض العراق بعلوجها وأرض الشام بعلوجها فما يسد به الثغور؟ وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أهل الشام والعراق؟) (٨٦) وأوضح أن المقاتلة تحتاج إلى عطاء، فمن أين يعطي هؤلاء إذا قسمت الأرض والعلوج؟

أي أنه أراد البلاد المفتوحة مورداً مالياً ثابتا للمسلمين وللدولة في عهده ومن بعده متصوراً ضرورة بقاء العرب أمة عسكرية مجاهدة(٨٧). وقد استفاد عمر بن الخطاب من الأنظمة المحلية التي كان البيزنطيون يطبقونها على ضريبة الأرض في الشام، فوضع أنظمة مرنة للخراج موصيا بأن لا يكلف أهل الذمة فوق طاقتهم(٨٨). مذكراً (بأننا لا نريدهم لعام أو عامين) (٨٩) وقد صنف عمر بن الخطاب الأراضي المفتوحة على ثلاثة أصناف:

١ - الصوافي: وتدعى صوافي الإمام (الخليفة)، وهي ملك للدولة(٩٠).

٢ - ارض الصلح: وهي الأراضي التي صالح أهلها المسلمين على أن

يدفعوا لهم ضريبة واحدة، وتبقى ملكية أراضيهم لهم(٩١).

٣ - أراضي أهل الذمة: وهي أراضي الخراج؛ وتشمل ما بقي من الأراضي المفتوحة عنوة. وكان الخراج بالشام: (جريب حنطة)(٩٢) وقد ورد ذكر الخراج على الأراضي المفتوحة التي تركت بيد أصحابها باعتبارها فيئاً للأمة ومن موارد بيت المال(٩٣). بحيث يبقى الخراج على أراضي أهل الذمة حتى بعد إسلامهم لأن اراضيهم: (إنما هي فئ الله على المسلمين عامة)(٩٤). أما في العصر الأموي -فإن المسلمين صاروا يتنافسون على امتلاك الأراضي. ولم يكتفوا بالحصول على الإقطاعات من الصوافي والأرض الموات، بل سمح لهم الخلفاء كعبد الملك والوليد بشراء الأراضي وبدفع العشر على الحاصل(٩٥). فإذا أضيف إلى ذلك انتشار الإسلام بين أهل الذمة من الزراع وما يصحبه من إعفاء من الخراج والجزية فقد قلت واردات الخزينة في الوقت الذي زادت فيه حاجة الدولة للمال للسيطرة على الوضع الداخلي وتغطية نفقات البلاط وللإنفاق على الجيوش. ونتج عن ذلك مشكلة عجز مالي(٩٦). ظل يتفاقم حتى جاء عمر بن عبد العزيز الذي وضع حلاً يحفظ حقوق بيت المال ويراعي المبادئ الإسلامية، فكان أول من ميز بين الجزية والخراج، فعد الجزية ضريبة يدفعها غير المسلم تسقط عنه بإسلامه. وأما الخراج فعده إيجاراً للأرض ولذلك فعلى المسلم حين يشتري أرض الخراج أن يدفع خراجها كإيجار للأرض، إذ هي وقف للمسلمين(٩٧). وفي حالة إسلام الذمي يعفى من الجزية ولكن أرضه تبقى خراجية(٩٨). ويذكر اليعقوبي أنه: (أقر القطائع التي

أقطعها أهل بيته)(٩٩) فلم تكن إصلاحته بأثر رجعي. كما أنها توقفت بوفاته ورجع الأمويون إلى سياستهم السابقة، بل ابتدعوا بدعة خطرة كانت من أسباب سقوط دولتهم وكانت البدعة تتمثل في أخذ الجزية والخراج من المسلمين الجدد من أهل الذمة مما دفعهم للهجرة من قراهم(١٠٠). وأخذ الخراج من العرب الذين إقتنوا أراضي خراجية، وأرهقوا أهل الذمة والموالي بالضرائب والسخر والهدايا، وهكذا فقدت الدولة ولاء رعاياها مما عجل بسقوطها(١٠١).

وقد أورد البلاذري أرقاماً ذات دلالة عن مقادير الخراج في الشام زمن عبد الملك عام ٨١هـ:

خراج دمشق ٤٠٠ألف دينار

خراج فلسطين ٣٥٠ ألف دينار

خراج الأردن ١٨٠ ألف دينار

خراج حمص مع قنسرين والعواصم ٨٠٠ ألف دينار أو ٧٠٠ألف دينار(١٠٢).

فإذا قارنا هذه الأرقام بخراج مصر البالغ ١٢ ألف ألف دينار أو خراج العراق البالغ ٦٠٠ ألف ألف دينار و ٥٥ ألف ألف درهم أو خراج اليمامة والبحرين البالغ ١٥ ألف ألف درهم(١٠٣) فإننا ندرك مدى ضآلة خراج بلاد الشام بسبب قلة مساحات الأراضي الخراجية، وكثرة الإعفاءات والتجاوزات لأهل الذمة وخاصة المدافعين عن الدولة الأموية

من النصارى العرب والنبط، واتساع أراضي الصوافي العشرية عموماً.

ولا يفوتني قبل إنهاء الحديث عن الخراج الإشارة إلى ماورد في برديات نصتان، بأن الخراج كان يدفع أحياناً نقداً كما ورد في البردية رقم ٥٨ وقد وردت في هذه البردية أسماء عربية وأعجمية وهم الذين تسلموا الخراج والذي يطلق عليه في البرديات لفظ (رزق)(١٠٤) وتضيف البردية رقم ٦٠ أن الرزق كان يدفع كمواد عينية، وأنه كان على قدر الطاقة. فقد ارتفع في البردية رقم ٦١ من سبعين مدي قمح إلى ستة وتسعين مدي قمح ومثله من الزيت(١٠٥) أما في البردية رقم ٦٤ فقد جاء فيها (فأعط وأعسر عبدالله بن علقمة مئتي وتسع وسبعون مدي قمح ومثله زيتاً وثمن (نقداً) مئتي وتسع وسبعون وثمانية عشر ديناراً)(١٠٦).

ويذكر البلاذري أن موعد دفع الخراج كان عند الحصاد، ولا يؤخذ إلّا مرة واحدة في السنة حتى لو وزعت الأرض أكثر من مرة في السنة الواحدة(١٠٧).

ج): العشور (ضرائب التجارة)

تترادف كلمتان في اللغة للدلالة على معنى واحد هما؛ العشور والمكس. وقد استعملت المصادر كلمة المكس، حيث يورد ابن منظور أن المكس هو: عبارة عن دراهم كانت تؤخذ من بائع السلع في الأسواق في الجاهلية(١٠٨). أما الخوارزمي فإنه يذكر أن المكس هو: ضريبة تؤخذ من التجار في المراصد(١٠٩).

ويبين المقريزي أن المكس هو العاشر وأصل المكس في اللغة هو

الجباية(١١٠).

وهكذا فإن عرب الجاهلية عرفوا ضريبة العشور. كما وتوجد روايات تفيد ان الرسول (ص) قد أعفى المناطق التي خضعت له من العشور مثل: ثقيف، ودومة الجندل ونجران: (أنهم لا يحشرون، ولا يعشرون)(١١١).

ولحاجة الدولة الإسلامية للتجارة مع الدول الأجنبية فإن عمر بن الخطاب هو أول من طبق هذه الضريبة. فقد أورد أبو يوسف أن أهل منبج(١١٢) كتبوا إلى عمر: دعنا ندخل أرضك تجاراً و تعشرنا فشاور عمر صحابة الرسول فأشاروا عليه بالموافقة، فكانوا أول من عشَر من أهل الحرب(١١٣) أما الرواية الثانية وقد ذكرها مالك في المدونة: (إن عمر بن الخطاب قال لأهل الذمة الذين كانوا يتجرون إلى المدينة: إن تجرتم في بلادكم فليس عليكم في أموالكم زكاة، وليس عليكم إلا جزيتكم التي فرضنا عليكم، وإن خرجتم وضربتم في البلاد وأدرتم أموالكم أخذنا منكم وفرضنا عليكم كما فرضنا جزيتكم. فكان يأخذ منهم من كل عشرين نصف العشر كلما قدموا، ولا يكتب لهم براءة بما أخذ منهم كما تكتب للمسلمين إلى الحول، فيأخذ منهم كلما جاءوا وإن جاءوا في السنة مائة مرة، ولا يكتب لهم براءة مما أخذ منهم)(١١٤) فالحجة تكتب للمسلمين مرة واحدة نظراً لارتباط العشور بالزكاة.

بينما أهل الذمة يؤدون الضرائب على تجارتهم في كل مرة فيمرون بها على العاشر لأنهم يحملون مالاً جديداً. أما الحربي فيدفع العشر كلما دخل دار الإسلام متاجراً(١١٥).

ويذكر الشافعي عن السائب بن يزيد قوله: (كنت عاملاً مع عبدالله بن عتبة على سوق المدينة، في زمان عمر بن الخطاب فكان يأخذ العشر من النبط) (١١٦) وفي رواية يحي بن آدم أن عمر بن الخطاب كان يأخذ من أهل الذمة أنصاف عشور أموالهم فيما اتجروا فيه(١١٧).

وطبعاً استمرت هذه الضريبة وازداد تنظيمها زمن الأمويين فنجد الشافعي يذكر أن زريق بن حيان كان عاملاً على العشور زمن الوليد وسليمان وعمر بن عبدالعزيز (١١٨). ويحدد المقريزي مكان عمل زريق فيذكر أنه كان على مكس أيلة في خلافة عمر بن عبدالعزيز (١١٩).

ويذكر مالك بن أنس أن من السنة: أنه ما أقام أهل الذمة في بلادهم التي صالحوا عليها فليس عليهم فيها إلا الجزية. إلا أن يتاجروا في بلاد المسلمين فيأخذ منهم العشر فيما يديرون من التجارة، أما إذا تاجر الذمي في بلاده من أعلاها إلى أسفلها ولم يخرج منها فليس عليه شيء (١٢٠).

وقد نظر بعض الفقهاء إلى ضريبة العشور نظرة سلبية. وقد يكون سبب ذلك سوء تصرف الجباة الذين قد يأخذون أكثر من العشر أو يكونون ظالمين في تعاملهم مع التجار الذميين(١٢١). لذلك نجد أبا يوسف يقدم النصيحة التالية: (وأما العشر فرأيت أن توليها قوماً من أهل الصلاح والدين وتأمرهم أن لا يتعدوا على الناس فيما يعاملونهم به، ولا يظلموهم ولا يؤخذ منهم أكثر مما يجب) (١٢٢).

هوامش الفصل الثالث

(١) أبويوسف، الخراج، ص٢١، اليعقوبي، ج٢، ص٢٩.
(٢) ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج١، ص٤٣.
(٣) المقريزي، الخطط، ج١، ص٩٨، ترتون، أهل الذمة، ص١٤.
(٤) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص٣٤، فالح حسين، مشاركة العناصر، ص٢٣٤.
(٥) الجهشياري، المصدر السابق، ص٢٩.
(٦) العصفري، تاريخ خليفة ابن خياط، ص١١٢، الجهشياري، المصدر السابق، ص٤٨.
(٧) الجهشياري، المصدر السابق، ص٣٤.
(٨) الجهشياري، المصدر السابق، ص٥٩.
(٩) الجهشياري، المصدر السابق، ص٣٤.
(١٠) الجهشياري، المصدر السابق، ص٤٠.
(١١) الجهشياري، المصدر السابق، ص٦٠.
(١٢) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص١٩٤.
(١٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٨٣.
(١٤) ترتون، أهل الذمة، ص١٨.
(١٥) ترتون، أهل الذمة في الإسلام، ص١٨.
(١٦) دينيت، دانييل، الجزية والإسلام، ص١٣٨.
(١٧) ابن عبدالحكم، سيرة عمر بن عبدالعزيز، ص١٣٦.
(١٨) ساويرس، سير الآباء البطاركة، ج٥، ص٧٢،٧١.
(١٩) المقريزي، الخطط، ج٢، ص٤٩٩.
(٢٠) الجاحظ، ثلاث رسائل، ص١٤-١٧.
(٢١) فان فلوتن، السيادة العربية، ص٣٥، فلهاوزن، الدولة العربية، ص٣٨٠.
(٢٢) ترتون، أهل الذمة، في الإسلام، ص١٤-٣٤.
(٢٣) الكندي، الكتاب والقضاة، ص٦٠، ابن عبدالحكم، سيرة عمر بن عبدالعزيز، ص١٥٦.
(٢٤) البلاذري، فتوح، ص٢٥٢، ترتون أهل الذمة، ص٢١٥.
(٢٥) الطبربي، تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٦٦٥.

(٢٦) البلاذري، الفتوح، ص١٦٤.

(٢٧) المسعودي، مروج الذهب، ج٢، ص٣٤٩.

(٢٨) الطبري، تاريخ، ج٤، ص٢٩١-٢٩٢.

(٢٩) حسين، فالح، مشاركة العناصر الغير العربية في الجيش والإدارة الأموية، دراسات مهداة إلى عبدالعزيز الدوري، ص٢٣٧.

(٣٠) Theophenes. p.p 47.

(٣١) Theophenes. p.p 64.

(٣٢) البلاذري، فتوح، ص١٥٠.

(٣٣) Theophenes. p.p 66.

(٣٤) البلاذري، فتوح، ص٢٦٦.

(٣٥) البلاذري، فتوح، ص٢٦٦.

(٣٦) البلاذري، فتوح، ص١٦٢.

(٣٧) الطبري، تاريخ ج٦، ص٥٨٥، ابن عبدربه، العقد الفريد، ج٤، ص٢١٤.

(٣٨) ترتون، أهل الذمة في الإسلام، ص٢١٦.

(٣٩) ابن سعد، الطبقات، ج٥، ص٢٦٢، ترتون، أهل الذمة، ص٢١٦.

(٤٠) البلاذري، الانساب، ج٥، ص٣٠٠.

(٤١) الدوري، عبدالعزيز، الجذور التاريخية للشعوب، ص١٦.

(٤٢) الطبري، تاريخ، ج٦، ص٢٧٤.

(٤٣) الطبري، تاريخ، ج٧، ص٢٦٧،٢٦٥.

(٤٤) البلاذري، فتوح، ص٢٧٤،٢٧٢.

(٤٥) البلاذري، فتوح، ص١٢٤.

(٤٦) الطبري، تاريخ، ج٧، ص٤٣٣.

(٤٧) الطبري، تاريخ، ج٧، ص٤٣٣.

(٤٨) سورة التوبة: الآية ٢٩.

(٤٩) ابن هشام، السيرة، ج٢، ص٥٢٥، الشافعي، الأم، ج٢،ص٢٧٨.

(٥٠) الصولي، أدب الكتاب، ص٢١٤.

(٥١) البلاذري، فتوح، ص٧٥.

(٥٢) البلاذري، فتوح، ص٧٥.

(٥٣) أبويوسف، الخراج، ص١٥.

(٥٤) أبويوسف، الخراج، ص١٥.

(٥٥) الدوري، عبدالعزيز، النظم الإسلامية، ص٨٢.

(٥٦) الدوري، عبدالعزيز، النظم الإسلامية، ص٨٢.

(٥٧) الجريب: يساي سبعة أقفزة، وهو ما يعادل ٢٢,٧١٥كغم من القمح عن: فالترهنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها بالنظام المتري، ترجمة الدكتور كامل العسلي، ص٦١.

(٥٨) البلاذري، فتوح، ص١١٣.

(٥٩) الطبري، تاريخ، ج٣، ص٦٠٩.

(٦٠) البلاذري، فتوح، ص١٨٥.

(٦١) الطبري، تاريخ، ج٣، ص٤٤.

(٦٢) ابن عساكر، تاريخ، ج١، ص٥١٠.

(٦٣) الطبري، تاريخ، ج٣، ص٤٤٠.

(٦٤) البلاذري، فتوح، ص١٢٣.

(٦٥) الدوري، النظم الإسلامية، ص١٢٣.

(٦٦) البلاذري، فتوح، ص١٣٠.

(٦٧) الأزدي، فتوح الشام، ص١٣٠.

(٦٨) ابن أعثم، الفتوح، ص٢١٦.

(٦٩) االبلاذي، فتوح، ٢١٦.

(٧٠) االبلاذي، فتوح، ١٣١.

(٧١) االبلاذي، فتوح، ١٢٤.

(٧٢) Theophanes. p.p. ٤٠.

(٧٣) دينيت، دانيل، الحزية والإسلام، ص١٠٨.

(٧٤) أبويوسف، الخراج، ص١٢٤.

(٧٥) أبويوسف، الخراج، ص١٤، أبوعبيد، الأموال، ص٥٥، قدامة بن جعفر، الخراج، ص١١٦.

(٧٦) حسين فالح، استعمال العربية في الدواوين المالية، ص١٢٤.

(٧٧) أبويوسف، الخراج، ص٤١.

(٧٨) الدوري، النظم الإسلامية، ص١٠٤، الدوري التنظيم الاقتصادي في صدر الإسلام، ص٨٤.
(٧٩) أبوعبيد، الأموال، ص٥١٠.
(٨٠) أبويوسف، الخراج، ص١٢٢.
(٨١) قال تعالى: ﴿واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل» الأنفال:٤١.
(٨٢) أبوعبيد، الأموال، ص٥٦.
(٨٣) أبويوسف، الخراج، ص٣٢.
(٨٤) أبويوسف، المصدر السابق، ص٣٣.
(٨٥) أبوعبيد، الأموال، ص٥٨، البلاذري، فتوح، ص٢١٨.
(٨٦) أبويوسف، الخراج، ص١٤-١٥.
(٨٧) الدوري، عبدالعزيز، النظم الإسلامية، ص٧٧.
(٨٨) أبويوسف، الخراج، ص٢١.
(٨٩) ابن عساكر، تاريخ، ص١٢٤.
(٩٠) يحيى بن آدم، الخراج، ص١-٨.
(٩١) يحيى بن آدم، الخراج، ص٩.
(٩٢) الدوري النظم الإسلامية، ص٩٤.
(٩٣) مالك بن أنس، المدونة، ج٤، ص٥٢٣.
(٩٤) ابن عبدالملك، فتوح مصر، ص٩٥.
(٩٥) ابن عساكر، التاريخ، ج١، ص١٨٤.
(٩٦) الدوري، عبدالعزيز، النظم الإسلامية، ص١٠٧.
(٩٧) يحيى بن آدم، الخراج، ص٣٤، الدوري، عبدالعزيز، النظم الإسلامية، ص١٠٧.
(٩٨) يحي بن آدم، المصدر السابق، ص٥٠.
(٩٩) اليعقوبي، تاريخ، ج٣، ص٤٨.
(١٠٠) الدوري، عبدالعزيز، النظم الإسلامية، ص ١٠٦.
(١٠١) فلهاوزن، الدولة العربية، ص ٢٧٩ - ٢٨٠.
(١٠٢) البلاذري، فتوح، ص ١٩٣.

(١٠٣) اليعقوبي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٣٣.
(١٠٤) Kraemer. Excavations of Nessana. Vol.3.p.p 178.
(١٠٥) Kraemer. Excavations of Nessana. Vol.3.p.p 180.
(١٠٦) Kraemer. Excavations of Nessana. Vol.3.p.p 182.189.
(١٠٧) البلاذري، فتوح، ص٤٤٧، السرخسي، المبسوط، ج١، ص٥٨٢.
(١٠٨) ابن منظور، لسان العرب، مادة مكس.
(١٠٩) الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص٤٠.
(١١٠) المقريزي، الحفظ، ج٢، ص١٢١.
(١١١) قدامة بن جعفر، الخراج، ص٢٤١، الحيدر أبادي، مجموعة الوثائق السياسية، ص٨١.
(١١٢) منبج: مدينة تقع الى الغرب من مجرى نهر الفرات بينه وبين حلب. ياقوت، معجم البلدان، ج٥، ص٢٠٥.
(١١٣) أبويوسف، الخراج، ص٢٩٤، فالح حسين العشور، ص٤.
(١١٤) مالك بن أنس، المدونة، ج١، ص٢٨١ خالد زنيد، التجارة في بلاد الشام، ص٩٤.
(١١٥) السرخسي، المبسوط، ج٢، ص٢٠١، خالد زنيد، التجارة في بلاد الشام، ص٩٤.
(١١٦) الشافعي، الأم، ج٤، ص٢١٧، فالح حسين، العشور، ص٥.
(١١٧) يحيى بن آدم، الخراج، ص٦٤، فالح حسين، المرجع السابق، ص٥.
(١١٨) الشافعي، الأم، ج٧، ص٢٤٥، فالح حسين، المرجع السابق، ص٨١.
(١١٩) المقريزي، الخطط، ج٢، ص١٢٣، فالح حسين، المرجع السابق، ص١١.
(١٢٠) مالك بن أنس، المدونة، ج١، ص٢٧٩-٢٨٠.
(١٢١) فالح حسين، العشور، ص١٠.
(١٢٢) أبو يوسف، الخراج، ص٢٩٤، فالح حسين، المرجع السابق، ص١٢.

الفصل الرابع

دور أهل الذمة في الحياة العامة في بلاد الشام في العصر الأموي

أ) النشاطات الإقتصادية

أولاً: الزراعة:

نستطيع أن نصنف الأراضي الزراعية في بلاد الشام في العهد الأموي الى ثلاثة أصناف:

١ - أراضٍ عشرية: يملكها المسلمون، وقد فرض عليها العشر إن كانت تروى بصورة طبيعية (بالأمطار) ونصف العشر إن كانت تروى بآلات الري. وكانت قليلة جداً في بلاد الشام(١).

٢ - الأرض الخراجية: وهي الأراضي المفتوحة عنوة أو صلحاً واستقر أمر عمر بن الخطاب باعتبارها فيء الأمة الإسلامية وظلت كذلك في العهد الأموي(٢) وكانت أراضي أهل الذمة كلها أراضياً خراجية.

٣ - الصوافي: وهي الأراضي التي كانت للأسر المالكة والنبلاء وأراضي من قتل أو هرب أثناء الفتح. وتشمل أيضاً البطائح وكل أرض لا مالك لها، وأراضي الموات التي تحتاج الى جهد ونفقة لإحيائها واعتبرت ملكاً مشتركاً للفاتحين الأولين وفيئاً لهم(٣).

وبعد استقرار الفتوح نظم سكن الفاتحين في مراكز خاصة بجوار بعض المدن الرئيسية في الشام وأعطيت لهم أراض للسكن والرعي(٤).

كما أقطعت أراض واسعة لعشائر أو قبائل لتوطينها ولتكون مرعى لها في الجزيرة الفراتية وبعض المدن الساحلية، ولتشجيع هجرة القبائل العربية الى الشام(٥).

وأبدى الأمراء والأشراف وكثيرون من عرب الجزيرة العربية اهتماماً بامتلاك الأراضي الزراعية كمصدر للثراء. وكانوا يحصلون على مبتغاهم إما عن طريق إحياء الأرض الموات، أو الحصول على إقطاعات من أرض الصوافي أو بواسطة الشراء فانتشرت الضياع والملكيات الكبيرة(٦).

كما ظهر في العصر الأموي ما عرف بالألجاء: ويقصد به وضع الزراع الذميين أراضيهم بحماية أمير أو شخصية هامة لتحاشي التعديات والحصول على خدمات الأمن والاستفادة من الري. لكن الألجاء كان يؤدي الى الحامي الجديد(٧) في نهاية المطاف.

وعندما استشرى في عهد الدولة الأموية شراء الأراضي الخراجية، حاول عمر بن عبد العزيز منعه لإنقاذ فيء المسلمين، ولحماية الزراع وصغار الملاكين. ولكن ذلك لم يدم سوى فترة قصيرة وعاد للظهور زمن هشام بن عبدالملك الذي اضطر لفرض الخراج على الأرض الخراجية بغض النظر عن دين مالكها أو هويته، أي أوجد مبدأ اعتبار الخراج إيجاراً للأرض(٨).

وكان الملاكون العرب يقيمون عادة في المدن أو المراكز العربية، وقليل منهم حاول استغلال الأرض مباشرة أو بواسطة الوكلاء. إلا أن أكثر أساليب استغلال الأرض شيوعاً كانت الإعتماد على الذميين لفلاحتها مزارعة، أو مساقاة، أو المفارسة، أو الكراء:

والمزارعة: إتفاق بين المالك وبين الزارع، يتضمن تحديد نسبة مقاسمة الحاصل بينهما، وهذه النسبة تعتمد على مدى مساهمة

الطرفين. وكان يترك للمزارع عادة طريقة استغلال الأرض واختيار نوع المزروعات(٩).

وأما المساقاة: فتكون في البساتين والأشجار المثمرة، ويتفق المالك مع المزارع على العناية بالأشجار والقيام بكل الأعمال اللازمة لقاء حصة من الثمر حسب نوعية الأشجار ومدة العقد(١٠).

ومنه المفارسة وهي اتفاق تخصص بموجبه أرضٌ، ويتولى المزارع غرسها بالأشجار حسب الإتفاق. وتقسم الحاصلات بنسبة معينة. وقد يلاحظ العرف في اقتسام الأرض مع الشجر بنهاية الإتفاق(١١).

ويذكر بليايف أن الزراعة قد ازدهرت في العصر الأموي بفضل تشجيع الخلفاء(١٢)، فأقبل الفلاحون من أهل الذمة والذين أطلقت المصادر عليهم اسم النبط(١٣)على النشاط الزراعي حتى غلبت الزراعة على سكان الشام وكانوا يدفعون الخراج على ما تحت أيديهم من أرض وذلك مما تنتجه الأرض من غلات ومحاصيل(١٤).

ومما ساهم به الخلفاء الأمويون: قيام يزيد بن معاوية بحفر نهر لسقي ضيعتين في الغوطة. وعندما تولى الخلافة أمر بتوسيع هذا النهر. وعندما اعترض أهل الغوطة على ذلك أرضاهم بأن ضمن لهم خراج سنتهم(١٥). واحتفر هشام بن عبدالملك في الرصافة نهري الهني والمري(١٦).

وكذلك فعل سليمان بن عبدالملك عندما بنى الرملة. حفر قناة لري المزروعات فيها وتدعى قناة بردة(١٧).

ولا يفوتنا في هذا السياق أن نشير الى كثرة الأراضي الزراعية والبساتين التي كانت حول الكنائس والأديرة والتي اورد ذكرها المؤرخون والجغرافيون: فقد ذكر الشابشتي كروم دير الطور بين طبريا واللجون والتي ترتوي من عين تتدفق بالماء(١٨).

و أيضاً كان لدير مارون بظاهر حلب على سفح جبل جوشن بساتين جليلة وكذلك لدير كنتون ببلاد طرابلس(١٩).

وكذلك كان دير صليبا بدمشق وهو مطل على الغوطة، كثير البساتين والمياه(٢٠). أما دير صيدنايا في شمال دمشق فكانت له بساتين وفيه ماء جار وله غلات واسعة(٢١). وطبعاً فإن ما أوردته هذه المصادر ينطبق على كل كنيسة ودير في بلاد الشام وهي كثيرة جداً. وبالإضافة الى أملاك الكنائس والأديرة فقد أشار المؤرخون إلى قرى ونواحي كثيرة في كل جهات الشام كان غالبية سكانها نصارى، وكانت الزراعة عماد حياة أهلها: أورد ابو الفداء عن الشوبك: هي بلد صغير كثير البساتين وغالب سكانها من النصارى(٢٢).

وورد ذكر كفر دبين: وهي قلعة على نهر العاصي والمرزبان: وهي قرية كبيرة من قرى حلب، وأهل هذه القرى وفلاحوها من الأرمن(٢٣).

ويذكر الإدريسي أنه كانت هناك مزارع عظيمة على جبال اللكام وهو من أعمر الجبال وأكبرها وأكثرها ثماراً(٢٤).

ويذكر ياقوت أن كم هي قرية غناء ذات عيون جارية وأشجار متدانية بين حلب وأنطاكية، وكل من فيها نصارى(٢٥). ويذكر أيضاً

أن قرية بيت ماما هي إحدى قرى مدينة نابلس فيها مزارع وسكانها سامرة(٢٦). وأما يبرد بالقرب من دمشق فتشتهر بكنائسها وبساتينها الكثيرة وفواكهها اللذيذة ومياهها الجارية(٢٧)

أما قرية قارا وهي بين حمص ودمشق: ففيها عيون جارية ويزرع أهلها الثمار وكلهم نصارى(٢٨) وهذه بعض الأمثلة لا أكثر.

الغلات والمحاصيل الزراعية

قال المسعودي عن بلاد الشام: (إنها كانت أخصب بلاد العالم، وأكثرها شجراً وأطيبها ثمراً وعنباً ونخلاً وموزاً)(٢٩) وهذا يدلنا على شهرة بلاد الشام بانتاج الكثير من المحاصيل الزراعية، ولكن أهمها: كان:

١ - الحبوب: ويقصد بها، القمح والشعير والشوفان والفول والحمص والعدس والكرسنة والذرة والسمسم والأرز. وكانت مناطق زراعتها تنتشر في معظم أنحاء بلاد الشام كعمّان(٣٠)، وحوران(٣١) والبثينة(٣٢) وثيزر وحماة(٣٣) وسهل البقاع(٣٤) وسهول حلب، وتحت أشجار الزيتون بين حلب وأنطاكية(٣٥) وبالس(٣٦)، وكانت أكثر زراعة معرة النعمان القمح(٣٧).

وقد بنى أهل الشام الأهراء(٣٨) وهي مخازن كبيرة للحبوب. ويذكر عنها قسطوس: (ينبغي للأهراء أن تكون شاسعة عن مرابط الدواب والمطابخ لحرها، وينبغي أن تكون لها كوى من قبل المشرق ومن قبل المغرب ومن قبل الشمال لتصيبها رياح هذه النواحي فتذهب الحر

عما فيها من الطعام ولا يفتح لها الى الجنوب شيء، لشدة حر هذه الجهة)(٣٩).

وكانت الحبوب من صادرات بلاد الشام في العصر الأموي الى الحجاز(٤٠)، وكان النبط يقومون بدور كبير في نقل هذه الحبوب من الشام إلى الحجاز(٤١)، كما كانت الحبوب تنقل على شكل دقيق على ظهور الإبل حتى نهر الفرات وبالمراكب النهرية عبر الفرات إلى بغداد ومنها إلى العالم المجاور(٤٢).

٢ - الزيتون: اشتهرت بلادالشام بالزيتون منذ القدم، وقد لقيت أشجار الزيتون عناية خاصة من الشاميين فانتشرت زراعتها في أغلب المناطق وكانت تكثر في مناطق طرابلس(٤٣) ومدن الساحل الفلسطيني(٤٤) ونابلس(٤٥) وقنسرين(٤٦). ويذكر الطبري كثافة الزيتون في السليمانية على بعد اربعة عشر ميلاً من دمشق(٤٧) مما يجعل دمشق مركزاً هاماً لزراعته، كما غرست أشجار الزيتون في الحميمة بأقصى جنوب الأردن فيذكر البلاذري أنه كان بها لمحمد بن علي بن عبدالله بن العباس (الداعية العباسي المشهور) خمسمائة شجرة زيتون(٤٨). كما ذكر ياقوت أن المسافة بين حلب وأنطاكية زرعت بأشجار الزيتون(٤٩). وكان لهشام بن عبدالملك بستان في الرصافة مغروس بأشجار الزيتون(٥٠). ويذكر ناصر خسرو أن رساتيق بيت المقدس كانت مليئة بأشجار الزيتون(٥١).

٣ - الكروم ((الأعناب)): اشتهرت بلاد الشام بزراعتها منذ

القدم، ومن أشهر مناطق زراعتها: بيسان(٥٢) وصرخد(٥٣) ودمشق(٥٤) وصيدا(٥٥) وبعلبك(٥٦) وفلسطين عموماً(٥٧) وبيت راس(٥٨) وبيروت(٥٩) وعسقلان وزغر وأذرعات واندرين، وجبل بصرى الذي قال المقدسي عنه (أن جبل بصرى وكرومه فلا تنسى)(٦٠) وقد اشتهرت جبرين بأعنابها التي كانت تحمل الى مصر(٦١). وقد عرف أهل الشام طريقة لخزن الأعناب فيذكر قسطوس: (غمس عناقيد الأعناب في ماء الشب وتعلق فلا تتلف طوال السنة)(٥٢).

٤ - التفاح: وهو من بين أشجار الفواكه المتنوعة التي اشتهرت بلاد الشام بزراعتها، وقد تركزت مناطق زراعته في معرة النعمان(٦٣) ولبنان وبخاصة منطقة البقاع(٦٤) وفلسطين وبيت المقدس(٦٥).

ويذكر الثعالبي أن التفاح الشامي كان مضرب المثل فيقول: (ومن خصائص الشام التفاح الذي يضرب به المثل في الحسن والطيب، وكان يحمل الى الخلفاء كل سنة منه ثلاثون ألف تفاحة في القرابات (أكياس الجلد)(٦٦).

٥ - التين: عرفته بلاد الشام منذ القدم، فورد ذكره في الوثائق الفرعونية والقرآن الكريم وقد اشتهرت بزراعته الرملة(٦٧) قيسارية(٦٨) كما زرعت أشجاره على الطريق بين القدس والخليل(٦٩).

٦ - محاصيل أخرى: اشتهرت بلاد الشام بزراعة الورود، فيذكر المقدسي أن: (أريحا كثيرة الموز والأرطاب والريحان)(٧٠) كما وصفت دمشق وغوطتها: (من جنان الدنيا الأربع، بل هي أحسن

وأطيب هذه الجنان لتنوع وكثرة الأزهار فيها) (٧١).

كما اشتهرت بلاد الشام بالرمان والمشمش وغيرهما من أنواع الثمار بالإضافة الى الزعفران(٤٢) والتوت وشتى أنواع الخضار كالبصل والثوم والخس والبطيخ والشمام واليقطين والقثاء والباذنجان والخيار واللوبيا والقرع والفاصوليا واللوبيا (٧٣).

ثانياً: الصناعات والحرف

عرفت بلاد الشام في العصر الأموي الكثير من الصناعات والحرف اليدوية. ولا ريب أن معظمها كان قائماً قبل الفتح الإسلامي، ولكن تطوراً كمياً ونوعياً نتج عن تبوأ الشام في العصر الأموي مركز الصدارة العالمية سياسياً واقتصادياً وأصبحت صناعاتها أيضاً تحتل هذه الصدارة ومن هذه الصناعات:

١ - صناعة الزجاج:

اشتهرت بلاد الشام بصناعة الزجاج منذ القدم حتى أن هذه الصناعة نسبت إليها (٧٤). ونالت دمشق شهرة عالمية. فيرى الثعالبي أن صناعة الزجاج من خصائص الشام: (ومن خصائصها الزجاج الذي يضرب به المثل في الرقة والصفاء، فيقال أرق من زجاج الشام وأصفى من زجاج الشام) (٧٥) كما أشار المقدسي الى أن بيت المقدس اشتهرت بإنتاج المرايا والقناديل(٧٦) كما وصف ما صنع منه في أريحا على أنه من أجود أنواع المرايا(٧٧). ومن المراكز الشهيرة في صناعة الزجاج (حلب) فيتحدث القزويني: (ومن عجائبها سوق الزجاج،

فإن الإنسان إذا اجتاز بها لا يريد أن يفارقها لكثرة مايرى فيها من الطرائف العجيبة والآلات اللطيفة...) (٧٨).

٢ - المعادن:

عرفت بلاد الشام الكثير من أنواع المعادن وأهمها الحديد والنحاس. وتشير المصادر إلى وجود الحديد في مناطق متعددة من الشام وبخاصة جبال بيروت(٧٩). وقد قامت عليه بعض الصناعات وبخاصة صناعة السيوف الدمشقية(٨٠) والمشرفية المنسوبة للمشارف(٨١)، إضافة الى صناعة الدروع والخوذ والسهام(٨٢) والسفن(٨٣).

كما وجد معدن النحاس في أريحا في فلسطين(٨٤). واستخدم أهل الشام النحاس والحديد في صنع الموازين والمكاييل والشبابيك والأقفال والأواني وأقداح الشراب(٨٥).

كما وجد الرخام في بيت جبرين(٨٦) والكبريت في الأغوارا(٨٧).

٣ - الأخشاب:

تركزت مناطق الأخشاب في بلاد الشام في الجهات الجبلية مثل اللكام(٨٨) وجبال لبنان(٨٩) وجبال الجليل في فلسطين(٩٠). وقد ساعد وجود هذه الغابات على تطور الصناعات الخشبية الثقيلة منها والخفيفة. فقد ذكر البلاذري أن معاوية بن أبي سفيان اعتمد على أهل الذمة في صناعة السفن فجلب الصناع والنجارين إلى عكا من جند الأردن. فكانت عكا أول دار لصناعة السفن في الشام(٩١). وظلت فيها حتى خلافة هشام بن عبد الملك الذي نقله الى صور(٩٢). ليس هذا

فحسب، بل اعتمد الأمويون على النصارى في النشاط البحري، لأنهم كانوا ماهرين في ركوب البحر ويتقنون فنون القتال فيه(٩٣). ومن الصناعات الخشبية الخفيفة التي برع فيها الذميون في الشام صناعة الأبواب والصناديق الخشبية والأثاث(٩٤).

٤ - المنسوجات:

اشتهرت بلاد الشام بالصناعات النسيجية وأهمها المنسوجات الحريرية(٩٥) التي تعتبر من أقدم الصناعات فيها. وقد كان كلاً من عسقلان وغزة وبعلبك وحمص وحلب وصور وطبريا ودمشق من أهم مراكزها(٩٦). فمثلاً أشار الإدريسي إلى أن صور كانت تصنع الثياب البيض الغالية الثمن(٩٧). ويشير الى منسوجات دمشق بقوله: (ومدينة دمشق جامعة لصنوف من المحاسن وضروب من الصناعات، وأنواع من الثياب الحريرية كالقز والديباج النفيس العجيب الصنعة العديم المثال...)(٩٨) كما ظهرت في دمشق الأقمشة التي عرفت بإسم الدمقس(٩٩).

ويذكر المقدسي أن حلب اشتهرت بإنتاج الثياب المصنوعة من القطن.. فيقول: (ومن حلب القطن والثياب)(١٠٠). ويذكر ياقوت الى أن الفراء الجيد كان يعمل في المصيصة فيقول: (ومن خصائص الثغر أنه كانت تعمل ببلدة المصيصة الفراء وتحمل إلى الآفاق...)(١٠١).

٥ - صناعة الصابون:

اشتهرت مناطق زراعة الزيتون في بلاد الشام بصناعة الصابون

وبخاصة بالس، وحلب، ونابلس(١٠٢).

ويذكر المقدسي صناعة الصابون بفلسطين بقوله: (من فلسطين الزيت والقطين... والصابون)(١٠٣). وتعتبر الرقة أيضاً من المراكز المهمة لصناعة الصابون. فيذكر المقدسي أنها: (معدن الصابون الجيد)(١٠٤).

٦ - صناعات أخرى:

اشتهر النصارى في مدن الشام وقراها وخاصة الأديرة بصناعة الخمور وخاصة نبيذ العنب، وقد ساعدهم في ذلك أن عهود الصلح أباحت لهم تناول الخمر وبيعها وشراءها شريطة عدم إظهارها(١٠٥). كما مهر أهل الذمة في البناء وزخرفة الجدران والحوائط بالنقوش والتصوير(١٠٦). واشتهرت الشام بصناعة الزيت وقد سمي (الركابي) لأنه كان يحمل على الركائب من الشام الى الحجاز والعراق وغيرهما، وقد لعب تجار النبط دوراً كبيراً في نقل الزيت الى الحجاز(١٠٧). ومن الصناعات الشامية، صناعة ماء الورد، الذي كان يعتبر دواء لعلاج الأمراض(١٠٨). ومن الصناعات التي أكثرت المصادر من ذكرها صناعة الخل(١٠٩)، وتجفيف التين ليصبح (قطيناً) وتجفيف العنب ليصبح زبيباً(١١٠).

وتشير بعض المصادر إلى امتهان اليهود حرفاً وضيعة؛ فكان منهم الدباغون والصباغون والسقاؤون، وكادوا يحتكرون تجارة الرقيق والخصيان وتجارة الذهب واللؤلؤ وأعمال الصيرفة. كما احترف عدد منهم صناعة الزجاج وإدارة السفن(١١١) وعمل بعضهم كخياطين

واسكافية وخرازين(١١٢).

ثالثا: التجارة

شارك أهل الذمة من يهود ونصارى بتنشيط الحركة التجارية في بلاد الشام في العصر الأموي سواء منها التصدير أو الإستيراد أو أعمال الصيرفة:

أ- تجار اليهود:

تذكر بعض الروايات أنهم مارسوا تجارة الحبوب(١١٣) والجواري والغلمان، والمنسوجات والفراء والسيوف(١١٤). كما مارس اليهود تجارة بيع الحيتان بأيلة(١١٥). ويؤكد التطيلي وجود بعض العائلات اليهودية في صور التي كانت تمتلك السفن والمراكب التي تجوب البحار شرقاً وغرباً بقصد التجارة(١١٦). ويذكر ابن خلكان أن بعض اليهود اشتغلوا وكلاء تجارة في الرملة(١١٧)، بينما أطلق ابن خرداذبة على تجار اليهود الذين يجوبون البحر المتوسط اسم (الرازانية)(١١٨).

وتولى الصيارفة اليهود في بعض مدن الشام عملية تبديل العملة من فئة لأخرى(١١٩). ويشير الجاحظ إلى أن اليهود اختاروا هذه المهن التي تمكنهم وثرواتهم من التحكم برقاب المجتمع، لأنها تتعلق بالأمور المالية والإقتصادية(١٢٠).

كما لعب اليهود دوراً في نقل السلع من الهند والصين إلى الشام. فيذكر ابن خرداذبة أنهم: (يمضون الى السند والهند والصين فيحملون من الصين المسك والعود والكافور.. وإن شاؤوا حملوا تجارتهم من

فرنجة في البحر الغربي، فيخرجون بأنطاكية ويسيرون على الأرض ثلاثة مراحل إلى الجابية)(١٢١) وبذلك لعب اليهود دور الوسطاء التجاريين في نقل السلع بين الغرب والشرق بالإضافة الى عمليات البيع والشراء(١٢٢).

ورغم تحريم الإسلام للربا إلا أن اليهود اشتهروا بالربا، فجنوا منه ارباحاً طائلة(١٢٣) ساعدهم في ذلك تسامح الدولة معهم فيما يتعلق بشؤون حياتهم العامة ومنها المعاملات التجارية.

ب- تجار النصارى:

كفلت عهود الصلح للذميين حرية العمل. فقد ذكر البلاذري أنه جاء في كتاب الأمان لأهل بعلبك: (لتجارهم أن يسافروا حيث أرادوا من البلاد التي صالحنا عليها.)(١٢٤).

وقد تمكن النصارى بسبب هذه الحرية من السيطرة على معظم أعمال التجارة في بلاد الشام(١٢٥). وكانت مصادر تطلق عليهم اسم (الضافطة) وكانوا يحملون أخبار الشام الى الحجاز وهم ينقلون السلع التجارية(١٢٦). فمثلاً كان أنباط الشام ينقلون الحبوب والزيت من الشام الى الحجاز(١٢٧) ومنهم: التاجر سيمونا البلقاوي(١٢٨) ويشير ابن قيم الجوزية الى أن عامل السوق بالمدينة كان يأخذ من النبط على الزيت والحنطة نصف العشر(١٢٩).

وقد لعبت الأديرة دوراً مهماً في الأعمال التجارية، فكانت مخازناً للسلع فضلاً عن كونها مصارف للنقود(١٣٠) ومنها دير البخت ودير

صليبا بدمشق(١٣١) وكذلك دير الرمان الذي يقع بين الرقة والخابور الذي كانت تنزله القوافل المتحركة بين الشام والعراق(١٣٢)، إضافة الى دير مارون الذي كان يحوي أموالاً طائلة. فيذكر ابن البطَريق: عند حديثه عن هرقل (.. فتركهم وذهب الى دير مارون فخرج عليهم الرهبان الذين في دير مارون فاستقبلونه، وكان هرقل مارونياً، فأعطاهم مالاً كثيراً...)(١٣٣).

كما لعب التجار النصارى دوراً مهما في العلاقات التجارية بين الشرق والغرب والشمال والجنوب. فمثلاً جلب هؤلاء التجار وأثناء قدومهم للشام الكثير من السلع ومنها الفسيفساء التي استخدموها في بناء كنائسهم وتجميلها(١٣٤).

وأحياناً كان أهل المدينة يقرضون الأموال لنبط الشام لجلب السلع الغذائية(١٣٥). وأحياناً كانوا يتعاونون في الأعمال التجارية كشركاء(١٣٦). وكان بعض التجار النبط يعملون ببيع لوازم السفر على الطريق التجاري بين بلاد الشام ومصر(١٣٧).

ب) نشاطاتهم الاجتماعية:

نستطيع القول أن معاملة الدولة الأموية لأهل الذمة في بلاد الشام هي من آثار عقد الذمة الذي التزمت بشروطه إلى حد كبير. فقد أمنهم العقد على عقائدهم وعلى كل ما يتصل بهذه العقائد من المقدسات، كالكنائس والصلبان. ويكفي أن نتذكر عهد عمر لأهل إيلياء: (.. لا تسكن، أو تهدم، أو ينتقض منها ولا من حيزها، ولا من صلبهم ولا من شيء من أموالهم..)(١٣٨).

وموقف الود والتحبب هذا تجاه الذميين وخاصة النصارى منهم مصدره إيمان المسلمين بالأنبياء الذين تقدموا محمداً (ص) وبرسالاتهم السماوية. وهو نابع أيضاً من شعار المسلمين (لا إكراه في الدين).(١٣٩)

وقد سارت الدولة الأموية على هذا النهج، لا بل حافظت على دور عبادتهم. فعندما هدم الزلزال كنيسة الرها أمر معاوية ببنائها وإعادتها الى سابق عهدها(١٤٠).

وأمسك معاوية عن زيادة كنيسة يوحنا بدمشق الى الجامع عندما أبى النصارى ذلك، ولم يرغمهم عبدالملك بن مروان بعد بذله مالاً كثيراً ورفضهم إياه(١٤١).

ويذكر ابن عساكر أن الوليد بن عبدالملك عرض عليهم القطائع والأموال وأن يبني لهم كنيسة حيث شاؤوا بدمشق. وعندما رفضوا هدد بأن يهدم كنيسة توما ويبني المسجد فيها لأنها لم تكن في العهد فقبلوا(١٤٢).

وفي رواية ابن شداد أنه أعطاهم مقابل ذلك أربع كنائس(١٤٣). ولم تتواتر روايات فيها اضطهاد أو تعطيل لأعيادهم وممارسة شعائرهم كقرع النواقيس أو الجنائز، أو إصلاح دور العبادة..الخ. فقد أورد أبويوسف في عهد خالد بن الوليد لأهل دمشق (..ولهم أن يضربوا نواقيسهم في أي ساعة شاؤوا من ليل أو نهار، إلا في أوقات الصلاة، وأن يخرجوا الصلبان في أيام أعيادهم..)(١٤٤).

أما بالنسبة لمكانة الذميين في الدولة الأموية، فقد اعتبروا من المواطنين. أي كما ذكر الكاساني: (والذمي من أهل دار الإسلام)(١٤٥).

وهذا يعني أن الدولة الأموية، اعتبرت الذميين مواطنين للدولة، والتزمت بحمايتهم، ولم تكلفهم عبء الدفاع عن أنفسهم أو عن للدولة مقابل دفعهم الجزية. وهذا أيضاً من شروط عقد الذمة. ويكمل الكاساني بقوله: (لأنه بعقد الذمة صار من أهل دار الإسلام)(١٤٦).

ولذلك لم يكن للذمي أن يتولى من وظائف الدولة العامة الثلاث:

١ - الخلافة (الإمامة).

٢ - الإمارة على الجهاد.

٣ - الوزارة (وزارة التفويض).

وحجب هذه الوظائف القليلة عن الذمي لأنها في الأصل متصلة بالعقيدة الإسلامية، وهي من هذه الزاوية تكليف وليست حقاً من الحقوق، فلم ترد في عقد الذمة لكونها بديهية. أما الوظائف العامة الأخرى فكانت مباحة للذميين ويكفي أن نذكر تولي أسرة سرجون للإدارة المالية أمداً طويلاً(١٤٧)، وابقاء الكتاب النصارى على دواوين الشام(١٤٨) وتولي الطبيب ابن آثال كطبيب خاص لمعاوية، واستعماله خراجاً على حمص، واختيار تاذري بن اسطين لديوان حمص في عهد هشام بن عبدالملك بعد اشتغاله كاتباً له(١٤٩).

وقد وصل نفوذهم في الدولة لدرجة أن الخليفة عمر بن عبدالعزيز كره أن يكون لأهل الذمة اليد العليا في إدارة شؤون الدولة فيؤدي ذلك إلى أن يكون لهم سلطان على المسلمين. لذلك أصدر أمره الى عماله قائلاً: (إن المسلمين استعانوا في بادئ الأمر بأهل الذمة بالجباية والكتابة والتدبير، فكانت لهم في ذلك مدة قد قضاها الله.. فلا أعلم كاتباً أو عاملاً في شيء من عملك على غير دين الإسلام إلا عزلته واستبدلت مكانه رجلاً مسلماً)(١٥٠).

ويذكر توماس أرنولد في: (أن سبب عزل الموظفين من أهل الذمة راجع بوجه عام الى سخط شائع أثاره السلوك الخشن المتعجرف الذي يسلكه الموظفون المسيحيون، أو من جراء إساءة إستعمال سلطتهم واستغلال مناصبهم العالية في سلب أموال المسلمين ومضايقتهم)(١٥١).

وكفلت الدولة الإسلامية الأموية لأهل الذمة حرية العمل ومباشرة الأنشطة الاقتصادية والتجارية. فاشتغلوا بصناعة الزجاج والمنسوجات والبسط والعطور والأسلحة وامتلكوا السفن وجابوا البحار في تجارتهم بين الشرق والغرب(١٥٢)، وعملوا في الزراعة وصنع الخمور والخل وتجارة الزبيب والقطن وكانوا وكلاء تجارة وصيارفة، وكان اليهود يحتكرون تجارة الرقيق والذهب واللؤلؤ(١٥٣).

ولم يكن محظوراً عليهم إلا ما كان محظوراً في الشريعة الإسلامية مثل التعامل بالربا، وبيع الخنزير والخمور في أمصار المسلمين(١٥٤). وقد كتب الخليفة عمر بن عبدالعزيز الى ولاة الأمصار: (.. أن لا يدخل أهل الذمة الخمر أمصار المسلمين)(١٥٥).

وهكذا نجد أن الدولة الأموية تعامل الذمي كإنسان أولاً، وكمواطن ثانياً، وكأحد رعايا هذه الدولة ثالثاً ولهذا الاعتبار لم تكن هذه الدولة تتخلى عن الذمي عند كبره او فقره فكانت تضع الجزية عنه أو تجري عليه نفقة مناسبة من بيت المال فقد كتب عمر بن عبدالعزيز إلى أحد عماله.

(.. وانظر إلى من قبلك من أهل الذمة قد كبرت سنه وضعفت قوته ودلت عنه المكاسب، فأجرِ عليه من بيت المسلمين ما يصلحه) (١٥٦).

وتمتع أهل الذمة بحريتهم الفكرية وحرية التعبير عن الرأي فيما يخصهم من أمور، وحريتهم في تعليم أبنائهم، ولكن عقد الذمة يلزمهم بشروط يذكرها الماوردي يعتبر الإخلال بها نقضاً للعهد وهي:

١ - أن لا يذكروا كتاب الله تعالى بطعن أو تحريف.

٢ - أن لا يذكروا رسول الله (ص) بتكذيب ولا ازدراء.

٣ - أن لا يذكروا الإسلام بذم ولا قدح.

٤ - أن لا يفتنوا مسلماً عن دينه ولا يتعرضوا لماله.

٥ - أن لا يعتدوا على مسلمة بزنا ولا نكاح.

٦ - أن لا يعينوا أهل الحرب على المسلمين.

وهذه الحقوق حسب الماوردي تلزمهم بمجرد عقد العهد معهم(١٥٧).

أما بالنسبة لصلات أهل الذمة بالمسلمين في حياتهم اليومية وعلاقاتهم الاجتماعية فإن المسلمين كانوا يتزوجون من بناتهم كونهم كتابيات. فقد أصهر اليهم معاوية بن أبي سفيان بزواجه من ميسون بنت بحدل الكلبية(١٥٨).

وأورد أبويوسف: فإذا صحب المسلم ذمياً يأكلون طعامهم ويركبون دوابهم كما يحل لهم أكل طعامك وركب دابتك) (١٥٩).

ومند تجاور المسلمون والنصارى بعد الفتوحات كانت لهم أسواق واحدة(١٦٠).

وكان المسلم يعود جاره النصراني إذا مرض. فقد عاد أبوالدرداء جاراً له نصرانياً(١٦١). وكانوا أيضاً يحضرون حفلاتهم ويباركون أعيادهم ويشاركون في جنائزهم. وإذا وقعت خصومة بين مسلم وذمي كانا يتساويان أمام القضاء فيروى أن مسلمة بن عبدالملك تخاصم مع بعض أهل دير إسحق. فقال له عمر بن عبدالعزيز: (لا تجلس على الوسائد وخصماؤك بين يدي، ولكن وكل بخصومتك من شئت، وإلا فاجلس مع القوم بين يدي، فوكل مولى له بخصومته وحكم عمر لأهل الدير على مسلمة بالرغم من أنه أمير أموي، وابن عمه وصهره) (١٦٢).

أما قضايا أهل الذمة في الأمور المدنية والجنائية والقضائية فقد ارتبطت برؤسائهم الدينيين إلا إذا كانت القضية تمس المسلمين(١٦٣).

وكان بوسع الذمي أن يوصي للكنيسة أو يوقف لها وقفاً من ماله(١٦٤).

أما بالنسبة لأمر ملابس أهل الذمة، فإن العهود الواردة في البلاذري والطبري وابن أعثم خالية من الإشارة إلى الملابس. ولكن أبا يوسف وابن عبدالحكم يوضحان أن الغرض من القواعد المتعلقة بالملابس هو سهولة التمييز بين أهل الذمة من نصارى ويهود وغيرهم وبين المسلمين(١٦٥). مع ملاحظة أنه لم يكن ثمة ضرورة وقت الفتح لالزام الذميين لبس نوع من الثياب يخالف ما يلبسه المسلمون. وكان لكل من الفريقين وقتذاك ثيابه الخاصة المتميزة والمختلفة. ولذلك يميل الباحث للرأي القائل بأن عمر بن عبدالعزيز هو أول من أصدر أحكاماً بشأن ملابس أهل الذمة. إذ يذكر ابن عبدالحكم أن عمر بن عبدالعزيز كتب إلى الآفاق: (أن لا يمشين نصراني إلا مفروق الناصية، ولا يلبس قباءً ولا يمشي إلا بزنار من جلد ولا يلبس طيلساناً ولا سراويل ذات خدمة ولا نعلاً لها عذبة)(١٦٦).

ومما يجدر ذكره أن اليهود كانوا يعرفون باللون الأصفر في عمائمهم بينما كان النصارى يمتازون بالزنار في أوساطهم(١٦٧).

ج) نشاطاتهم العلمية والثقافية:

أولاً: الترجمة:

كان خالد بن يزيد بن معاوية يلقب بخالد الكيماوي، لأنه يعتبر من أوائل الخلفاء الذين كانت لهم اهتمامات علمية وبخاصة في علم

الكيمياء. ولقب أيضاً بحكيم آل مروان، وقد أمر باستحضار جماعة من الفلاسفة اليونان من مصر وطلب منهم أن يقوموا بترجمة الكتب من اليونانية والقبطية إلى العربية في مجالات الطب والنجوم والكيمياء. كما استعان أيضاً براهب نصراني يدعى (مريانس) ليعلمه علم الصنعة (الكيمياء) واستقدم من مصر اسطفن الاسكندراني الذي ترجم له كتباً في هذا العلم وقد أجاد خالد هذه العلوم لدرجة أنه ألفّ ثلاث رسائل حسنة فيها(١٦٨).

ومن أشهر الذين أسهموا في حركة الترجمة في ذلك العصر يوحنا الدمشقي الذي كان يجيد اليونانية والآرامية والعربية. وكان ملازماً ليزيد بن معاوية. أما الطبيب اليهودي ماسرجيس فكان يجيد السريانية وينقل منها إلى العربية(١٦٩) وكان طبيباً لمروان بن الحكم وترجم كتاباً من السريانية للعربية للقس أهرن بن أعين، وكتاب الأطعمة وكتاب العقاقير(١٧٠).

كما ترجم قبل ذلك الطبيب ابن آثال كتباً في الطب بطلب من معاوية بن أبي سفيان(١٧١).

وهكذا نرى أن حركة الترجمة والتعريب رغم كونها تمثل بداية متواضعة قياساً لما أنجزه العباسيون بعد ذلك، إلا أنها بدأت في العصر الأموي. وكان الاعتماد فيها كلياً على أهل الذمة وعلمائهم الذين تمكن المسلمون بفضلهم من الاطلاع على الثقافات العلمية للأمم الأخرى والانتفاع بما يجيدونه من علوم ومعارف(١٧٢).

ثانياً: الطب والفلسفة:

برع في مجال العلوم العلمية والعقلية أطباء وفلاسفة من أهل الذمة. كان منهم أبوالحكم النصراني وكان طبيباً عالماً بأنواع الأدوية والعلاج، وله أعمال مذكورة ووصفات مشهورة وكان معاوية بنَ أبي سفيان يستطبه ويعتمد عليه في تركيب الأدوية(١٧٣).

وكذلك ابن آثال النصراني، وكان من الأطباء المتميزين في عاصمة الدولة الأموية خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة وقواها وما فيها من سموم. وكان معاوية يقرّبه ويتخذه طبيباً خاصاً له(١٧٤). وأما عبدالملك بن أبجر الكناني الذي كان نصرانيا من أهل الاسكندرية وأسلم على يد عمر بن عبدالعزيز عندما كان بمصر أثناء ولاية أبيه عليها. فلما استخلف عمر استقدمه إلى الشام واعتمد عليه في صناعة الطب(١٧٥).

أما في مجال الفلسفة فإن بلاد الشام قبل الفتح الإسلامي كانت كما هو معلوم تاريخياً ذات حضارة هللينية (وهي مزيج من الحضارة والثقافة اليونانية وثقافات أخرى شرقية) وكانت هذه الثقافة محط اهتمام عدة مدارس مشهورة تعني بالفلسفة والمنطق كمدرسة الرها ونصيبين وقنسرين وحران(١٧٦).

وبدون شرح مستفيض للمدرسة الرواقية التي أسسها الإمبراطور زينون ونشرها بوزيدونيوس السرياني، ونتج عن ذلك أن كان للمفكرين السريان شأن كبير فيها. وهي تعنى بمحبة الحكمة والسعي وراء الفضيلة، والنظرة الى وحدة الإنسان. ويعتبر اتجاه بوزيدونيوس

الأفامي نحو التوفيق بين المذاهب من أهم مساهماته في الفلسفة التي وصلت الى العرب المسلمين عن طريق شرّاح أرسطو ومن خلال كتب جالينوس التي ترجمت للعربية(١٧٧).

ثالثاً: الشعر والأدب:

تبلورت في العصر الأموي الأحزاب السياسية. فكانت الإنقسامات حول موضوع الخلافة (الحكم) قاسمها المشترك. وبرزت منها ثلاثة أحزاب كبرى؛ فكان العلويون/ الشيعة ينادون بحق آل البيت في الخلافة، والأمويون الذين جعلوا الخلافة ملكية وراثية في بني أمية بفرعيها السفياني والمرواني، وآخرها كان حزب الخوارج الذي حارب الطرفين مطالباً بجعل الخلافة حقاً لكافة المسلمين ومعتمدة على الشورى(١٧٨).

وفي ذلك العصر كان لأدب الخطابة والشعر دوراً عظيماً في الدفاع عن وجهات النظر المتباينة. فبرز لكل حزب خطباؤه المبدعون وشعراؤه الناطقون باسمه لما للخطابة والشعر من أثر في نفوس العرب. وقد شجع خلفاء بني أمية الشعراء المادحين والمدافعين عن سلطتهم فاغدقوا عليهم الأموال وجعلوا لهم مكانة متميزة في مجالسهم(١٧٩).

وكان من الشعراء النصارى من أهل الشام نفر انحاز إلى حزب بني أمية، فمدح خلفائهم تكسباً للمال أو تقرباً من السلطان. منهم أعشى بني تغلب الذي لقى الحظوة عند خلفاء بني أمية وأمرائهم. فقد روى أبوالفرج الأصفهاني.أن الوليد بن عبدالملك أحسن إلى أعشى بني تغلب، وأن هذا الشاعر قد مدح أيضاً مسلمة بن عبدالملك. وأعشى بني

ربيعة الذي كان مروانياً متعصباً لبني أمية، قدم الشام مراراً ومدح عبدالملك بن مروان، وسليمان بن عبدالملك. ومن شعر له يحث فيه عبدالملك بن مروان على بيعة الوليد وخلع أخيه عبدالعزيز(١٨٠).

إبْـنُـكَ أولى بمُلكِ والدهِ

وعمُّهُ إن عَصَاكَ مُطَّرحُ

ورثتَ عثمان، وابنَ حربٍ، ومر

وإن كلٌّ للهِ قدْ نصحوا

فعشْ حميداً، واعملْ بسُنتهم

تَكُنْ بخير، واكدحْ كما كَدَحُوا

ومنهم أيضاً نابغة بن شيبان الذي ذكره أبوالفرج الأصبهاني في الأغاني باسم عبدالله بن المخارق الذي قال في قصيدة يمدح بها عبدالملك بن مروان(١٨١):

أزحتَ آل الزبير ولوْ

كانوا همُ المالكينَ ما صلحوا

آلَ أبي العاصِ أهل مأثرةٍ

غرٌّ عتاق بالخير قدْ نفحوا

أمّا قريشٌ فأنت وازعُها

تلفٌّ من شَغبِهِمْ إذا طمحوا

ولكن أشهر شعراء النصرانية في العصر الأموي هو الأخطل التغلبي(١٨٢). وهو يعتبر شاعر بني أمية غير منازع، ومحل فخرهم ونديمهم، ويجيزون له ما لا يجيزون لسواه من أصحابهم. مدح كلاً من يزيد بن معاوية وعبدالملك بن مروان وهشام والوليد ابني عبدالملك. وقد ذكر صاحب الأغاني(١٨٣) عنه (أنه كان يدخل على الخليفة عبدالملك بن مروان دون إذن وهو مرتد عباءة من حرير وعليه تعويذة، وقد تدلى من عنقه صليب ذهبي مشدود الى سلسة ذهبية والخمر تقطر من لحيته)(١٨٤).

ومن الطبيعي أن هذه الرواية مبالغ فيها وربما قصد منها ابراز المكانة المرموقة التي وصل إليها الأخطل، ومن قصائده التي رفعت مكانته التي يقول فيها (مادحاً عبدالملك بن مروان)(١٨٥):

خَفَّ القطينِ فراحوا منكَ أو بكروا

وازعجتُهم نوى في صَرفِها غَيرُ

إلى أمرئٍ لا تعدينَا نوافلُهُ

أظفرَهُ الله فلْيهنأ لهُ الظفرُ

والتي يقول فيها عن بني أمية(١٨٦):

شمسُ العداوةِ حتى يُستقادُ لهمْ

وأعظمُ الناسِ أحلاماً إذا قدروا

ويرى صاحب الأغاني: (أن عبدالملك قال للأخطل يوماً: أسمعنا يا أخطل فأنشده ما أعجبه.. قال الراوي: فجعلت أرى عبدالملك يتطاول عند سماعها ثم قال: (ويحك يا أخطل أتريد أن أكتب إلى الأفاق أنك أشعر العرب) قال: أكتفي بقول أمير المؤمنين(١٨٧). ويبين ترتون أن يزيد بن معاوية اصطفاه لمنادمته في لهوه(١٨٨).

هوامش الفصل الرابع

(١) الدوري، عبدالعزيز، التنظيم الاقتصادي في صدر الإسلام، ص٨٠.

(٢) أبو يوسف، الخراج، ص ٨٢.

(٣) ابن عبدالحكم، سيرة عمر بن عبدالعزيز، ص ٧٢-٧٤، ص ٩٦-٩٧.

(٤) الدوري، عبدالعزيز، النظم الإسلامية، ص٨٠-٨٣.

(٥) البلاذري، فتوح، ص ٢٤٣-٢٤٥.

(٦) البلاذري، فتوح، ص ٢٩٣، اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص ٢٥٨، الدوري، عبدالعزيز، النظم الإسلامية، ص٧٦-٨٠..

(٧) عبدالعزيز الدوري، نشأة الإقطاع في المجتمعات الإسلامية، ص٨، مجلة المجمع العلمي العراقي، م٢٠، سنة ١٩٧٠.

(٨) ابن عساكر، ترايخ دمشق، ج١، ص ٥٨٧.

(٩) السبكي، فتوى، ج١، ص ٣٩٩.

(١٠) الطبري، اختلاف الفقهاء، طبعه كيرن، ص ١٢٣.

(١١) عبدالعزيز الدوري، نشأة الإقطاع في المجتمعات الإسلامية، مجلة المجمع العلمي العراقي، م٢٠، سنة ١٩٧٠.

(١٢) بليايف، العرب والإسلام والخلافة العربية، ص ٢١١.

(١٣) (وسموا أنباطاً لاستنباطهم ما يخرج من الأراضين)، ابن منظور مادة نبط.

(١٤) فالح حسين، الحياة الزراعية، ص ٣٧، ٤٣.

(١٥) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٢، ص ١٥٢.

(١٦) البلاذري، فتوح، ص ١٤٩.

(١٧) البلاذري، فتوح، ص ١٤٩.

(١٨) الشابشتي، الديارات، ص ١٣٢، ياقوت، معجم، ج٢، ص ٥٢.

(١٩) ياقوت، معجم، ج٢، ص٥٣١، العمري، مسالك الأمصار، ج١،ص ٣٣٦.

(٢٠) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج٢، ق١، ص ٢٧٧.

(٢١) العمري، مسالك الأبصار، ج١، ص ٣٤٩.

(٢٢) ابوالفداء، تقويم البلدان، ص٢٤٧.

(٢٣) ابن الشمنة، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، ص١٦٧.
(٢٤) الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج٥، ص ١٧٣.
(٢٥) ياقوت، معجم، ج٤، ص١٥٧.
(٢٦) ياقوت، معجم، ج١، ص ٥٢٢.
(٢٧) ابن ابي اصيبعة، عيون الأنباء، ص ٦٠.
(٢٨) ابن جبير، تذكرة الأخبار في اتفاقات الأسفار، ص٢٣٣.
(٢٩) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٢، ص ٢٧٢.
(٣٠) اليعقوبي، البلدان، ص ٣٢٤-٣٢٥.
(٣١) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١٨٠.
(٣٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، المصدر السابق، ص ١٦٠.
(٣٣) ابن حوقل، صورة الأرض، ق١، ص١٦٣.
(٣٤) لومبارد، موريس، الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي، ص٤٤.
(٣٥) ياقوت، معجم البلدان، ج١، ص٢٦٧،٢٦٦.
(٣٦) ابن حوقل، المصدر السابق، ق١، ص١٦٥.
(٣٧) خسرو، ناصر، سفرنامة، ص١١.
(٣٨) الطبري، تاريخ، ج٤، ص٦٥.
(٣٩) قسطوس، البعلبكي، الفلاحة اليونانية، ص ٣٠.
(٤٠) ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج٣، ص٣١٥.
(٤١) البخاري، التاريخ،ج٤، ق٢، ص٣٨٣.
(٤٢) اليعقوبي، البلدان، ص٣٥٠.
(٤٣) الإدريسي، نزهة المشتاق، ج٢، ص٣٧٤.
(٤٤) الإدريسي، نزهة المشتاق، ج٤، ص٣٦٤.
(٤٥) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٧٤.
(٤٦) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٧٤.
(٤٧) الطبري، تاريخ، ج٧، ص٢٦٤.
(٤٨) البلاذري، أنساب، ق٣، ص٨٧.
(٤٩) ياقوت، البلدان، بج١، ص٢٦٦-٢٦٧.

(٥٠) الجاحظ، البخلاء، ص٣١.
(٥١) خسرو، ناصر، سفر نامة، ص٢٠.
(٥٢) ابن قتيبة، الأشربة، ص٢٠٦.
(٥٣) ابن قتيبة، الأشربة، ص٣٠.
(٥٤) الإدريسي، نزهة المشتاق، ج٤، ص ٣٦٦-٣٦٧.
(٥٥) خسرو، ناصر، سفر نامة، ص١٤-١٥.
(٥٦) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٧٩، الإدريسي، نزهة المشتاق، ج٤، ص٣٦٩.
(٥٧) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٨١.
(٥٨) الهمذاني، صفة جزيرة العرب، ص٢٧١.
(٥٩) الوليد، المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٨٠.
(٦٠) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٥٢،١٥١.
(٦١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٧٢.
(٦٢) قسطوس، البعبكي، الفلاحة اليونانية ص٣٥.
(٦٣) شيخ الربوة، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص٢٠٠.
(٦٤) الثعالبي، لطائف، ص٢٠٩،٢٠٨.
(٦٥) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٨١.
(٦٦) الثعالبي، لطائف، ص١٥٦.
(٦٧) الثعالبي، لطائف، ص١٥٦.
(٦٨) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٦٤، خسرو، ناصر، ص١٨.
(٦٩) خسرو، ناصر، المصدر السابق، ص٣٢.
(٧٠) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٧٥.
(٧١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٨٣،١٦٠.
(٧٢) ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص٥٣١.
(٧٣) القلشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٨٧.
(٧٤) حتي، تاريخ سوريا، ج١، ص٩٦-٩٧.
(٧٥) الثعالبي، لطائف، ص١٥٧.
(٧٦) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٨٠-١٨١.

(٧٧) حتي، تاريخ العرب، ج٢، ص٧٨٩.

(٧٨) القزويني، آثار، ص١٨٣-١٨٤.

(٧٩) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٨٤.

(٨٠) كردعلي، خطط الشام، ج٤، ص٢١٣،١٦٠.

(٨١) المشارف: قرى قرب حوران، ياقوت، البلدان، مج٥، ص١٣١.

(٨٢) قدامة، الخراج، ص٤٩.

(٨٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٣١-٣٢.

(٨٤) حتي، تاريخ سوريا، ج١، ص٩٥-٩٦.

(٨٥) لسترانج، بلدان، ص١٤٦،١٤٥.

(٨٦) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٧٤.

(٨٧) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٨٤.

(٨٨) ابن حوقل، صورة الأرض، ق١، ص١٦٧، المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٨٨.

(٨٩) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٨٨.

(٩٠) ابن حوقل، ق١، ص١٥٩.

(٩١) البلاذري، فتوح، ص١٢٤.

(٩٢) البلاذري، فتوح، ص١٢٥.

(٩٣) ابن أعثم، الفتوح، ج٢، ص١١٨.

(٩٤) نقولا زيادة، رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، ص١١٠.

(٩٥) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٨٠-١٨١.

(٩٦) الإدريسي، نزهة المشتاق، ج٤، ص٣٦٩.

(٩٧) الإدريسي، نزهة المشتاق، ج٤، ص٣٦٦، كردعلي، ج٤، ص٢٠١.

(٩٨) الإدريسي، نزهة المشتاق، ج٤، ص٣٦٩.

(٩٩) كردعلي، خطط الشام، ج٤، ص٢٠١.

(١٠٠) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٨٢.

(١٠١) ياقوت، البلدان، مج٥، ص١٤٥.

(١٠٢) ابن حوقل، صورة الأرض، ق١، ص١٥٨-١٦٥.

(١٠٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٨٠.

(١٠٤) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٤١.

(١٠٥) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص٢٩٤.

(١٠٦) حتي، تاريخ سورين ولبنان وفلسطين، ج٢، ص١٢٤.

(١٠٧) البخاري، التاريخ، ق٣، ص٣٨٣، حتي، تاريخ العرب، ج٢، ص٤٣٠.

(١٠٨) كردعلي، خطط الشام، ج٤، ص١٥٧، حتي، تاريخ العرب، ج٢، ص٤٣١-٤٣٢.

(١٠٩) ابن حوقل، صورة الأرض، ق١، ص١٦٦-١٨٨، قسطوس، الفلاح الرومية، ص١٠٥.

(١١٠) ابن حوقل، صورة الأرض، ق١، ص١٦٦.

(١١١) التطيلي، الرحلة، ص٩٩، الكاساني، بدائع الصنائع، ج٧، ص١٦٧.

(١١٢) أبويوسف، الخراج، ص٢٥٦.

(١١٣) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج٣، ص١٩٠.

(١١٤) ابن خرداذبة، المسالك، ص١٥٣-١٥٤.

(١١٥) الطبري، جامع، ج١، ٢٦٢.

(١١٦) التطيلي، الرحلة، ص٩١-٩٢.

(١١٧) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٦، ص٣٢.

(١١٨) ابن خرداذبة، المسالك، ص١٥٣.

(١١٩) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٨٣.

(١٢٠) الجاحظ، رسائل، ج٣، ص٣١٦.

(١٢١) ابن خرداذبة، المسالك، ص١٥٣-١٥٤.

(١٢٢) ابن خرداذبة، ص١٥٣-١٥٤.

(١٢٣) حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ح٣، ص٣٣١.

(١٢٤) البلاذري، فتوح، ص١٣٢.

(١٢٥) ابن قيم الجوزية، هداية، ص٧٠.

(١٢٦) الواقدي، المغازي، ج٣، ص٩٨٩-٩٩٠.

(١٢٧) الطبري، جامع، ج١١، ص٤٤، ابن الأثير، أسد الغابة، ج٢، ص١٨٠-١٨١.

(١٢٨) ابن الأثير، أسد الغابة، ج٢، ص٣٨٣.

(١٢٩) ابن قيم الجوزية، أحكام، ق١، ص١٥٥-١٥٦.

(١٣٠) لومبارد، موريس، الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي، ص١٨٤.

(١٣١) الشابشتي، الديارات، ص٣٢٩،٣١٤.

(١٣٢) ياقوت، البلدان، مج٢، ص٥١١.

(١٣٣) ابن البطريق، التاريخ المجموع، ص٥.

(١٣٤) حتي، تاريخ العرب، ج٢، ص٤٢٠-٤٢١.

(١٣٥) البخاري، التاريخ، ج١، ق١، ص٢٧.

(١٣٦) الديار بكري، تاريخ الخميس في أموال أنفس النفيس، ج٢، ص١٤٦.

(١٣٧) ياقوت، البلدان، مج٢، ص٥١٧.

(١٣٨) الطبري، تاريخ، ج٣، ص٦٠٩.

(١٣٩) سورة البقرة آية ٢٥٦.

(١٤٠) ترتون، أهل الذمة في الإسلام، ص٤١.

(١٤١) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص٥١.

(١٤٢) ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق، ج١، ص٢٠١.

(١٤٣) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص٢٠٥.

(١٤٤) أبويوسف، الخراج، ص٢٩٤.

(١٤٥) الكاساني، البدائع، ج٥، ص٢٨١.

(١٤٦) الكاساني، البدائع، ج٥، ص٢٨١.

(١٤٧) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص٢٦٥.

(١٤٨) المقريزي، المواعظ والإعتبار، ج١، ص١٥٨-١٥٩.

(١٤٩) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص٣٤-٤٨.

(١٥٠) ابن قيم الجوزيه، أحكام أهل الذمة، ج١، ص٢١٢-٢١٣.

(١٥١) توماس، أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص٤٣.

(١٥٢) ابن خرداذبه، المسالك والممالك، ص١٥٤،١٥٣.

(١٥٣) الكاساني، بدائع الصنائع، ج٧، ص١٦٧.

(١٥٤)توماس، أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص٩٥-٩٧.

(١٥٥) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٥، ص٣٦٥.

(١٥٦) أبوعبيد، الأموال، ص٤٥-٤٦.

(١٥٧) الماوردي، الأحاكام السلطانية، ص١٤٥، ترتون، أهل الذمة، ص٨.

(١٥٨) البستاني، فؤاد افرام،دور النصارى في اقرار الخلافة الأموية، مقال، مجلة المشرق، ج١، السنة ٣٦، عام ١٩٢٨.

(١٥٩) أبويوسف، الخراج، ص٢٥٩.

(١٦٠) أبويوسف، الخراج، ص١٥٢.

(١٦١) ابن قتيبة، عيون الاخبار، مج٢، ج٣، ص٤٤، ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ج١، ص٢٠.

(١٦٢) ابن عبدالحكم، سيرة عمر بن عبدالعزيز، ص٥٩،٦٨.

(١٦٣) الاصفهاني، أبوفرج، الأغاني، ج٨، ص٣٠٩.

(١٦٤) ابن سعد، الطبقات، ج٥، ص٣٦٢.

(١٦٥) ابن عبدالحكم، فتوح مصر، ص١٥١.

(١٦٦) ابن عبدالحكم، سيرة عمر بن عبدالعزيز، ص١٣٦.

(١٦٧) ترتون، أهل الذمة، ص٧٨.

(١٦٨) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص٣٣٨-٣٤٢.

(١٦٩) ابن أبي اصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص٢٨٠.

(١٧٠) ابن أبي أصيبحة، المصدر السابق، ص٢٨٠.

(١٧١) ابن أبي أصيبحة، المصدر السابق، ص٢٨١.

(١٧٢) جورج قنواتي، المسيحية والحضارة العربية، ص٦٠.

(١٧٣) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص١٧٥-١٧٦.

(١٧٤) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص١٧٧.

(١٧٥) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص١٧١.

(١٧٦) جورج عطية، الأثر السرياني في الحياة الفكرية والعلمية في بلاد الشام، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، الندوة الأولى، ص١٤٤-١٧٦.

(١٧٧) جورج عطية، المرجع السابق، ص١٤٤-١٧٦.

(١٧٨) الدوري، عبدالعزيز، النظم الإسلامية، ص٣٩.

(١٧٩) انظر، شعر الوليد بن يزيد، ص٧٦.

(١٨٠) الأصفهاني، الأغاني، ج٧، ص١٦٠.
(١٨١) الأصفهاني، الأغاني، ج٧، ص١٦٠.
(١٨٢) هو أبو مالك غياث بن غوث (ت ٩٢هـ(.
(١٨٣) الأصفهاني، الأغاني، ج٧، ص١٦٩.
(١٨٤) الأصفهاني، الأغاني، ج٧، ص١٦٠.
(١٨٥) أبوالفرج الأصفهاني، ج٦، ص٢٨٧.
(١٨٦) أبوالفرج الأصفهاني، ج٦، ص٢٨٧.
(١٨٧) أبوالفرج الأصبهاني، الأغاني، ج٦، ص٢٨٧.
(١٨٨) ترتون، المرجع السابق، ص١٨٩.

الخاتمة

من خلال هذه الدراسة المستفيضة والتي بحثت في موضوع أهل الذمة في العصر الأموي يمكننا أن نستخلص عدداً من النتائج والملاحظات أوجزها فيما يلي :

١) لم يكن سكان بلاد الشام والذين هم في غالبيتهم من النصارى واليهود، سواء كانوا عرباً أم عجماً، بالإضافة ألى النبط والسريان والسامرة ، لم يكونوا في حقيقة الأمر يتمتعون بمثل ذلك الأمن والاستقرار والرخاء الذي تمتعوا به بعد مجيء الفتح الاسلامي. فإذا ما تناولنا أوضاعهم أبان حكم الدولتين الفارسية والبيزنطية نجد انهم كانوا يعانون الكثير من الظلم والتعنت إلى أن جاء الإسلام الذي كفل لهم حقوقهم الدينية والدنيوية. ان دل هذا على شيء فإنما يدل على سماحة الدين الإسلامي ومدى الحرية الاجتماعية التي ضمنها للأفراد الذين يعيشون في ظله.

ومن الجدير بالذكر أن غالبية السكان في بلاد الشام كانوا بالدرجة الأولى نصارى وان اليهود والسامرة لم يكونوا سوى أقلية بسيطة تركزت بشكل خاص في فلسطين وبيت المقدس.

٢) بالرغم من وجود فئات عارضت عملية الفتح الإسلامي إلا أننا نجد قبائل أو جماعات عربية نصرانية وقفت إلى جانب المسلمين كعيون و أدلاّء، بالإضافة إلى أنها قامت بإمداد الجيش الإسلامي بالتموين، وكان هذا بدافع الحمية العربية. من القبائل التي وقفت إلى جانب

المسلمين في فتوحاتهم قبائل لخم وجذام، بعكس قبيلة غسان التي وقفت إلى جانب البيزنطيين حتى آخر لحظة.

٣) لم يكن الإسلام دين حرب بل دين دبلوماسية، فالهدف الأول والأخير هو نشر الدين الإسلامي بين أفراد الشعوب المختلفة ولم يكن القصد منه فرض سياسة معينة بأسلوب عسكري، بدليل قيام الرسول (ص) -ومن بعده الصحابة الذين ساروا على خطاه- ببعث الرسائل الى الملوك والقادة يدعوهم من خلالها إلى الإسلام ونبذ كل ما هو باطل، ومن ثم لجأ إلى الأسلوب العسكري، فلم يكن بطبيعته دموياً بل مسالماً. ولم يقف الرسول (ص) عند هذا الحد، بل قام بإبرام ما يسمى بـِ (عقود الذمة) مع تلك الجماعات التي آثرت البقاء على دينها، وهذه العقود تكفل الأمان لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وتضمن حرية العبادة مقابل دفع الجزية على النفس والخراج على الأرض ،وهذه تساوي بالمقدار ما يدفعه المسلم عن طريق الزكاة.

وقد استمر عقد الذمة هذا بعد عصر الرسول (ص) في عهد الخلفاء الراشدين والدولة الأموية. وقد تمتع أهل الذمة في عهد الأمويين بالحرية الدينية والشخصية، بل انهم تولوا مناصب إدارية هامة في الدولة الأموية كنوع من التأكيد على مدى التسامح الإسلامي، ومحاولة دمج كافة أفراد المجتمع الإسلامي في نفس الدرجة من المعاملة والتسامح.

٤) لم يكن أهل الذمة يعيشون منعزلين عن بقية المجتمع، بل تمتعوا بحسن الجوار مع المسلمين ومارسوا كافة نشاطاتهم الاجتماعية والاقتصادية والعلمية، بل إن أهل الذمة شاركوا مشاركة فاعلة وساهموا بشكل كبير في الحياة العلمية فكان لهم دور في حركة الترجمة والتأليف اللتين نشطتا بشكل كبير في العصر الأموي، كما أن عددا من الخلفاء اتخذ منهم الأطباء والفلاسفة والمربين لتربية أبنائهم ، مثال ذلك ما قام به خالد بن يزيد عندما جعل مربياً من أهل الذمة يقوم على تعليم الوليد. كما كان منهم الشعراء المقربون من الخلفاء والأمراء الذين كانوا يغدقون عليهم الأموال والهبات.

هذا فيما يتعلق بالنصارى، أما اليهود فكانوا على العكس من ذلك، حيث أنهم لم يشاركوا في إدارة شؤون الدولة ولم يتولوا مناصب هامة ، ولم يشاركوا في الجيوش والأنشطة العلمية والثقافية. لكنهم كانوا يسيطرون على جوانب هامة من الحياة الاقتصادية مثل تجارة الذهب والعبيد وبعض الصناعات والحرف المهمة في الدولة.

٥) وأخيراً ،أستطيع القول بأن دراسة موضوع أهل الذمة في العصر الأموي كان موضوعاً شائكاً وصعباً نسبياً إذا ما قورن بمواضيع أخرى في تاريخنا الإسلامي العريق، وأرجو من العلي القدير بأن أكون قد وفقت في أداء هذه الأمانة.

قائمة المصادر والمراجع

أ) المصادر:

المصادر المطبوعة:

- القرآن الكريم.
- التوراة.
- إنجيل متى.
- إنجيل لوقا.
- ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي (ت ٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م).
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت (د.ت).
- ابن الأثير عز الدين ابو الحسن، علي بن محمد الشيباني (ت ٦٣٠هـ/ ١١٣٢م).
- الكامل في التاريخ، ١٣ج، دار صادر، بيروت، ١٩٨٢.
- أسد الغابة في معرفة الصحابة، ٥ج، نشر جمعية المعارف طهران، ١٢٨٦هـ.
- الإدريسي، أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله (ت ٥٦٠هـ/ ١١٦٤م).
- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ٧ج، تحقيق مجموعة من العلماء، نشر إيطاليا، نابولي، روما، ١٩٧٠- ١٩٧٧.

- الأزدي، أبو اسماعيل محمد بن عبدالله (ت٢٧٩هـ/ ٨٩٢م).
- تاريخ فتوح الشام، تحقيق عبدالمنعم عبدالله عامر، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، ١٩٧٠م.
- الأصطخري، أبوإسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي (ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م).
- كتاب مسالك الممالك، تحقيق م.ج. ديه غويه، ليدن، بريل ١٩٦٧ (اوفست مكتبة المثنى بغداد).
- الأقاليم، تحقيق (J. Moller)، غوتا، اوفست مكتبة المثنى، بغداد د.ت.
- الأصفهاني، حمزة بن الحسن (٣٦٠هـ/٩٧١م).
- تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦١.
- الأصفهاني، علي بن الحسين (٣٥٦هـ/ ٩٦٦م).
- الأغاني، ٢٤ج، تحقيق مجموعة من العلماء، دار إحياء التراث العربي، بيروت، مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية (دون تاريخ).
- ابن أعثم، أبو محمد أحمد الكوفي (٣١٤هـ/ ٩٢٦م).
- كتاب الفتوح، ط١، ٨ج، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ١٩٦٨.
- البخاري، محمد بن إسماعيل (٢٥٦هـ/ ٨٦٩م).
- كتاب التاريخ الكبير ط١، ج٤، العثمانية، حيدر آباد، الدكن،

١٩٤٣.
- ابن البطريق، سعيد (افتيشيوس) (٣٢٨هـ/ ٩٤٠م).
- كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، ويليه تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٩م.
- البكري، أبو عبدالله بن عبدالعزيز (٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م).
- المسالك والممالك، ط١، ٤ج، تحقيق عبدالله يوسف الغنيم، نشر دار السلاسل، الكويت، ١٩٧٧.
- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ط١، ٤ج، تحقيق مصطفى السقا، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٥.
- البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (٢٧٩هـ/ ٨٩٢م).
- كتاب فتوح البلدان، بإشراف لجنة تحقيق التراث، منشورات مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٨.
- أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميدالله، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٩.
- البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد (ت ٤٢٥هـ/١٠٣٦م).
- الآثار الباقية في القرون الخالية، طبعة لايبرج، ١٩٣٢.
- التطيلي، بنيامين بن يونه التطيلي الأندلسي (٥٦٩هـ/ ١١٧٣م).
- رحلة بنيامين التطيلي، ط١، ترجمة عزار حداد، المطبعة الشرقية بغداد، ١٩٤٥.
- الثعالبي، عبدالملك بن محمد بن إسماعيل (٤٢٩هـ/ ١٠٣٦م).

- لطائف المعارف، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار إحياء ا لكتب العربية، القاهرة، د.ت.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (٢٥٥هـ/ ٨٦٨م).
- رسائل الجاحظ، ط١، ٤ج، ٢مج، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، دار الجليل، بيروت، ١٩٩١.
- ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد الأندلسي، (ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م).
- تذكرة الأخبار في اتفاقات الأسفار، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٤م.
- الجهشياري، محمد بن عبدوس (٣٣١هـ/ ٩٤٢م).
- الوزراء والكتاب، ط١، تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الأبياري، طبع ونشر البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٨.
- ابن حزم أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد (٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م).
- الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق محمد إبراهيم، وعبد الرحمن عمره، دار الجليل، بيروت، ١٩٨٥.
- الحموي، ياقوت شهاب الدين أبو عبدالله الرومي (٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م).
- معجم البلدان، ٥مج، نشر دار صادر، بيروت، ١٩٧٩- ١٩٨٦.
- ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي الموصلي الحوقلي (٣٥٦هـ/ ٩٦٦م).
- كتاب صورة الأرض، قسمان في مجلد واحد، منشورات دار مكتبة

الحياة، بيروت، ١٩٧٩.
- ابن خرداذبة، أبو القاسم عبدالله بن عبدالله (٢٧٢هـ/ ٨٨٥م).
- المسالك والممالك، تحقيق م.ج ديه غويه، ليدن، ١٨٨٩ (أعادت طبعه بالأوفست دار المدينة).
- خسرو، ناصر أبومعين المروزي، (٤٨١هـ/ ١٠٨٨م).
- سفرنامة/ ط١، ترجمة يحيى الخشاب، مطبعة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٤.
- ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد الحضرمي (٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م).
- تاريخ ابن خلدون (كتاب العبر و ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٧١.
- ابن خلكان، أحمد بن محمد بن أبي بكر (٦٨١هـ/ ١٢٨٢م).
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ط١، ٦ج، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، نشر مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٤٨.
- الخوارزمي، محمد بن يوسف بن أحمد (٣٨٧هـ/ ٩٩٧م).
- مفاتيح العلوم، ط٢، منشورات مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
- الديار بكري، حسين بن محمد بن الحسن (٩٦٦هـ/ ١٥٥٨م).
- تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، جزءآن، المطبعة الوهبية،

القاهرة، ١٢٨٣هـ.

- الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود (٢٨٢هـ/ ٨٩٤م).
- الأخبار الطوال، تحقيق عبدالمنعم عامر، وجمال الدين الشيال، أوفست مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٥٩م.
- ابن رستة، أحمد بن عمر (حوالي ٢٩٠هـ/ ٩٠٢م).
- الأعلاق النفيسة، تحقيق ديه غويه، مطبعة بريل - ليدن ١٨٩١ (أوفست مكتبة المثنى، بغداد).
- الزرقاني، ابو عبدالله محمد بن عبدالباقي (١١٢٢هـ/ ١٧١٠م).
- شرح الزرقاني على المواهب اللدنية للقسطلاني، ٨ج، المطبعة الأزهرية، القاهرة، ١٣٢٦هـ.
- السبكي، علي بن عبد الكافي (٧٥٦هـ/١٣٦٦م).
- فتاوى السبكي، ٢ج، نشر مكتبة القدسي، القاهرة، ١٣٥٦هـ.
- السرخسي، أبو بكر محمد بن أبي سهل (٤٩٠ هـ/١٠٩٤م).
- المبسوط ط٣، ٣٠ج، تحقيق محمد أراضي الحنفي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٨ (بالأوفست).
- ابن سعيد، محمد (٢٢٠هـ/ ٨٣٥م).
- كتاب الطبقات الكبير، ٨ج، تصحيح ادوارد سخاو وآخرين منشورات النصر، طهران، ١٣٢٢هـ/ ١٩١٧م.
- الشافعي، محمد بن ادريس (٢٠٤هـ/ ٨١٩م).
- الأم، ٧ج، القاهرة، ١٣٢١- ١٣٢٥هـ.

- الشابشتي، أبو الحسن علي بن محمد (٣٨٨هـ/ ٩٩٨م).
- الديارات، ط٣، تحقيق كوركيس عواد، دار الرائد العربي، بيروت، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- ابن الشحنة، محمد (القرن التاسع الهجري).
- الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، نشر يوسف الياس سركيس الدمشقي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٠٩.
- الشهر ستاني، أبو الفتح محمد بن عبدالكريم بن أبي بكر (٥٤٨هـ/ ١١٥٣م).
- الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٧.
- ابن شداد، محمد بن علي إبراهيم (٦٨٤هـ/١٢٩٠م).
- الأعلاف الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ٣ج، تحقيق دزمنيك سورديل (ج١ سنة ١٩٥٢) وسامي الدهان (ج٢- ٣ سنة ١٩٥٦- ١٩٦٢م)، نشر المعهد الفرنسي بدمشق، المطبعة الكاثوليكية بيروت.
- شيخ الربوة، شمس الدين أبوعبدالله محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي (٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م).
- نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، تحقيق أ.ف مهرن، ليبزج ١٩٢٨م (اعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد).
- الصولي أبوبكر محمد بن يحيى (٩٤٦هـ/ ١٥٣٩م).
- أدب الكاتب، تحقيق محمد بهجت الأثري، المكتبة العربية، بغداد،

١٣٤١هـ.

- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (٣١٠هـ/٩٢٥م).
- تاريخ الرسل والملوك، ط٢، ١٠ج، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرف بمصر، ١٩٧٦- ١٩٧٧.
- جامع البيان في تفسير القرآن، ط١، ٣٠ج، نشر المطبعة الكبرى الأميرية، ببولاق، مصر، ١٣٢٣- ١٣٢٩ (تصوير بالأوفست بدار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٦/ ١٤٠٧هـ).
- اختلاف الفقهاء، ط١، تحقيق فردريك كرن، طبع بمطبعتي الموسوعات والترقي، بمصر، القاهرة، ١٣٢٠هـ/ ١٩١٢م.
- ابن عبدالحكم، أبو عبدالله محمد بن عبدالله (٢٦٢هـ/ ٨٧٥م).
- سيرة عمر بن عبدالعزيز، ط٢، مطبعة الأعتماد، مصر، ١٣٣٧هـ/ ١٩٥٤م.
- ابن عبدالحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبدالله بن عبدالحكم (٢٥٧هـ/ ٨٧٠م).
- فتوح مصر وأخبارها، تحقيق شارلز توري، طبعة بريل، ليدن ١٩٣٠.
- ابن عبدربه، أحمد بن محمد (٣٢٨هـ/ ٩٣٩م).
- العقد الفريد، ط١، تحقيق عبدالمجيد الترجيني، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣.
- ابن العبري، أبوالفرج غريغوريوس بن أهرون الملطي (٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م).

- تاريخ مختصر الدول، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٥٨ ودار الرائد اللبناني، بيروت، ١٩٨٣.
- أبوعبيد، القاسم بن سلام (٢٢٤هـ/ ٨٣٨م).
- الأموال، ط١، تحقيق محمد خليل هراس، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٦٨.
- ابن عساكر، ثقة الدين أبوالقاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي (ت٥٧١هـ/١١٧٥م).
- تاريخ مدينة دمشق وذكر فضائلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق، ١٩٥٤م.
- تهذيب تاريخ ابن عساكر، ط٢، تهذيب وترتيب الشيخ عبدالقادر أحمد بدران، دار السيرة، بيروت، ١٩٧٩م.
- العسقلاني، ابن حجر شهاب الدين أبوالفضل أحمد بن علي بن محمد (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م).
- الإصابة في تمييز الصحابة، ٨ج، تحقيق علي محمد البجاوي، دار النهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٧٠-١٩٧٢.
- العصفري، أبو عمرو خليفة بن خياط، (ت ٢٤٠هـ/٨٥٤م).
- تاريخ خليفة ابن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، ط٢، دار القلم، دمشق ١٩٧٧.
- العمري، أحمد بن فضل الله (٧٤٢هـ/١٣٤١م).
- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق أحمد زكي، دار

الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٤.

- العيني، بدر الدين محمود بن أحمد (٨٥٥هـ/١٤٥١م).
- السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، تحقيق فهيم محمد شلتوت دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧.
- أبوالفداء، عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر (٧٣٢هـ/١٣٣١م).
- المختصر في تاريخ النشر، ط، ٤ج، المطبعة الحسينية، القاهرة، ١٣٢٥هـ.
- تقويم البلدان، تصحيح ريود وماك كوكين ريسلان، نشر دار الطباعة السلطانية، باريس، ١٨٥٠م.
- الفيروز أبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، (٨١٧هـ/١٤١٤م).
- ابن قتيبة، أبومحمد عبدالله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م).
- كتاب عيون الأخبار، ط١، ٤ج، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٥-١٩٣٠م.
- كتاب الأشربة وذكر اختلاف الناس فيها، تحقيق محمد كرد علي، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م.
- قدامة بن جعفر بن زياد الكاتب البغدادي (٣٢٩هـ/٩٤٠م).
- الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق محمد حسين الزبيدي دار الرشيد للنشر، وزارة الثقافة والاعلام، بغداد، ١٩٨١.
- القزويني، أبوعبدالله زكريا بن محمد الأنصاري (٦٨٢هـ/١٢٨٣م).

- آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت (د.ت).
- قسطوس بن لوقا البعلبكي (ت ٣١١هـ/٩٢٣م).
- الفلاحة اليونانية (الرومية)، ترجمة سرجس بن هليا الرومي، المطبعة الوهبية، القاهرة، ١٢٩٣هـ/١٨٧٦م.
- القلقشندي، أبوالعباس أحمد بن علي (٨٢١هـ/١٤٢٢م).
- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ١٤ج، وزارة الثقافة والإرشاد القومي المصرية، القاهرة، (د.ت).
- ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبوعبدالله محمد بن أبي بكر (٧٥١هـ/١٣٥٠م).
- أحكام أهل الذمة، ط١، جزءان، تحقيق صبحي الصالح، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٦١-١٩٦٣.
- هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، تحقيق عصام فارس الحرستاني، المكتبة الثقافية، بيروت د.ت.
- الكاساني، علاء الدين أبوبكر بن مسعود (٥٨٧هـ/١١٩١م).
- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، ١٠ج، مطبعة العاصمة، القاهرة (د.ت).
- الكندي، أبوعمر محمد بن يوسف (٣٥٠هـ/٩٦١م).
- كتاب الولاة والقضاة، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨.
- مالك بن أنس (١٧٩هـ/٧٩٤م).
- المدونة الكبرى، ١٦ج، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٢٣هـ (أوفست دار صادر، بيروت، ومكتبة المثنى، بغداد).

- الماوردي، أبوالحسن علي بن محمد بن حبيب البصري (٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م).
- الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ط٣، مطبعة مصطفى البابيّ الحلبي بمصر، القاهرة، ١٩٧٣.
- المسعودي، أبوالحسن علي بن الحسين (٣٤٥هـ/٩٥٦م).
- مروج الذهب ومعادن الجوهر، ٥ج، تحقيق شارل بلا، منشورات الجامعة اللبنانية، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦٥-١٩٧٤.
- التنبيه والإشراف، المكتبة العصرية، بغداد، ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م.
- المقدسي، أبوعبدالله محمد بن أحمد (٣٧٥هـ/٩٨٥م).
- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق م.ج دي غويه، بريل ١٩٠٦، (أعادت طبعه بالأوفست مكتبة خياط، بيروت).
- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (٨٤٥هـ/١٤٥٥م).
- المواعظ والاعتبار بذكرالخطط والآثار، ٢ج، مكبعة بولاق، القاهرة، ١٢٩٤هـ (أوفست مكتبة المثنى، بغداد،١٩٧٠).
- ابن المقفع، ساويرس، (توفي حوالي القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي).
- سير الآباء البطاركة، ج٥، باريس، ١٩١٠.
- ابن منظور، محمد ابن مكرم ابن علي، (ت ٧١١هـ/ ١٣١١م).
- لسان العرب، ٣مج، بيروت، د.ت.
- المنقري، نصر بن مزاحم (٢١٢هـ/٨٢٦م).

- وقعة صفين، ط٢، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، مطبعة المدينة، القاهرة، ١٩٦٢.
- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب (٧٢٢هـ/١٣٢١م).
- نهاية الأرب في فنون الأدب، ١٨ج، دار الكتب المصرية القاهرة، ١٩٢٩م.
- ابن هشام، جمال الدين أبومحمد عبدالملك المعافري (٢١٣هـ/ ٨٢٨م).
- السيرة النبوية، ٤ج في ٢مج، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبدالحفيظ شلبي، مكتبة مصطفى البابي الحلبي القاهرة، ١٩٥٥م.
- الهمذاني، الحسين بن أحمد بن يعقوب (ت٣٣٤هـ/ ٩٤٥م).
- صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي، منشورات دار اليمامة للبحث، الرياض، ١٩٧٤م.
- الواحدي، أبوالحسن علي بن أحمد (٤٦٨هـ/١٠٧٥م).
- أسباب النزول، تحقيق السيد أحمد صقر، القاهرة، ١٩٦٩.
- الواقدي، أبوعبدالله محمد بن عمر (ت ٢٠٧هـ/٨٢٢م).
- المغازي، ٣ج، تحقيق مارسدن جونس، مطبعة أكسفورد، أكسفورد، ١٩٦٦.
- الوليد بن يزيد (ت ١٢٩هـ/٧٤٣م).
- شعر الوليد بن يزيد ط١، تحقيق حسين عطوان، نشر الجامعة الأردنية، المطبعة الاقتصادية، مكتبة الأقصى عمان، ١٩٧٩.

- يحي بن آدم القرشي (ت ٢٠٣هـ/٨١٨م).
- الخراج، ط٢، تحقيق أحمد محمد شاكر، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٨٤هـ.
- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن وهب بن واضح (٢٧٨هـ/ ٨٩١م).
- كتاب البلدان تحقيق م.ج ديه غويه، بريل، ليدن، ١٨٩٢.
- تاريخ اليعقوبي، مجلدان، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٠م.
- أبويوسف، يعقوب بن إبراهيم الأنصاري (١٨٢هـ/٧٩٨م).
- كتاب الخراج، ط١، تحقيق إحسان عباس، دار الشروق، الكويت، ١٩٨٥م.

ب) المراجع

١: المراجع العربية

- إبراهيم العدوي، الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم، ط٢، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٨.
- إحسان عباس، تاريخ بلاد الشام، مطبعة الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٠.
- أرنولد، توماس، الدعوة إلى الإسلام، ط٣، ترجمة حسن إبراهيم ورفيقاه، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٠،
- بتلر، الفرد، فتح العرب لمصر، ترجمة محمد فريد أبوحديد، القاهرة ١٩٣٣.
- بحيري، صلاح الدين، جغرافية الأردن، عمان، ١٩٧٣.
- بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، ط٣، ترجمة عبدالحليم النجار دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٤.
- بليايف، ي. أ، العرب والإسلام والخلافة العربية، ط١، ترجمة أنيس فريحه وراجعه محمود زايد، الدار المتحدة للنشر، بيروت، ١٩٧٣.
- بينز، نورمان، الإمبراطورية البيزنطية، ط٢، ترجمة حسين مؤنس، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٧.
- ترتون، أ. س، أهل الذمة في الإسلام، ط٢، ترجمة حسن حبشي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧.
- جورج قنواتي، المسيحية والحضارة العربية، المؤسسة العربية

للدراسات والنشر، بيروت (د.ت).

- حتي، فيليب، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، جزءآن، ترجمة عبدالكريم رافق وجورج حداد، نشر دار الثقافة مؤسسة فرانكلين، بيروت، ١٩٥٨.
- حتي، فيليب، تاريخ العرب المطول، ط٤، جزءآن، ترجمة ادوارد جرجي وجبرائيل جبور، دار الكشاف، بيروت، ١٩٦٥.
- حسن، إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٢.
- الحسن بن طلال، (ولي عهد الأردن)، المسيحية في العالم العربي، مكتبة عمان، ١٩٩٥.
- حسن ظاظا، الفكر الديني الإسرائيلي (أطواره ومذاهبه)، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٧١م.
- حسين، فالح، الحياة الزراعية في بلاد الشام في العصر الأموي، نشر بدعم من الجامعة الأردنية، ١٩٧٨.
- الحيدر أبادي، محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، د.ت.
- دانييل دينيت، الجزية والإسلام، ترجمة فوزي فهيم جاد الله منشورات دار مكتبة الحياة، مؤسسة فرانكلين، بيروت، ١٩٦٠.
- الدوري، عبدالعزيز، النظم الإسلامية، ج١، ط١، بيت الحكمة، جامعة بغداد، ١٩٨٨.

- الدوري، عبدالعزيز، الجذور التاريخية للشعوبية، بيروت، دار الطليعة، ١٩٦٢.
- الدوري، عبدالعزيز، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، بيروت، ١٩٦٩.
- رجاء دويردي، جغرافية سوريا والوطن العربي، مطبعة الحرمين، دمشق ١٩٨١.
- رنسيمان، ستيفن، الحضارة البيزنطية، ترجمة عبدالعزيز جاويد القاهرة، ١٩٦١.
- رؤوف شلبي، (يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء)، دراسة مقارنة للمسيحية، القاهرة، (د.ت).
- عاشور، سعيد عبدالفتاح، أوروبا في العصور الوسطى، ط٨، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٥.
- ابن عاشور، محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، ٣٠ج، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤.
- علي عبدالواحد وافي، اليهودية واليهود (بحث في ديانة اليهود وتاريخهم ونظامهم الاجتماعي والاقتصادي)،

نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، (د.ت).

- فان فلوتن، السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية ط٢، ترجمة حسن إبراهيم حسن، ومحمد زكي إبراهيم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٥.
- فلها وزن، يوليوس، تاريخ الدولة العربية وسقوطها، ترجمة محمد

عبدالهادي أبوريده، وحسين مؤنس، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨.

- قاسم عبده قاسم، أهل الذمة في مصر في العصور الوسطى، ط١، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧.
- كرد علي، محمد، خطط الشام، ط٣، ٦ج، دار العلم للملايين، بيروت ومكتبة النوري، دمشق، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣.
- لسترانج، كي، بلدان الخلافة الشرقية، ط٢، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥.
- لومبارد، موريس، الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي خلال القرون الأربعة الأولى، ترجمة عبدالرحمن حميده، دار الفكر، دمشق، ١٩٧٩.
- لويس شيخو، شعراء النصرانية، ٣ج، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٢٣.
- منير العجلاني، عبقرية الإسلام في أصول الحكم، ط١، دمشق (د.ت).
- نجدة خماش، الشام في صدر الإسلام، نشر طلاس للترجمة والنشر دمشق، ١٩٨٧.
- نهى نجار، موسوعة الأديان (الديانة المسيحية) دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٥.
- يوسف عيد، الديانة اليهودية، دار الفكر اللبناني، بيروت، (د.ت).

٢: المراجع الإنجليزية

- Fisher. W.B. The Middle East. Methnen & Co London. 1971.
- Kraemer. casper. JR. Excavations of Nessana. Vol.3 Colt. Ar-chaealagical Institnte. Princeton University press. New Jersey. 1958.
- Trimingham. J.S. christianity Among the Arabs in Pre-Islamic Times London and New york.
- Turtledove. Harry. The chronicle of Theophanes. University of pennsylvania press. press. philadelphia. U.S.A. 1982.

٣: الرسائل الجامعية

- إسحاق يوسف متي، التاريخ المنحول ديونيسيوس التلمحري رسالة دكتوراة، الجامعة الأمريكية، بيروت، لبنان، ١٩٧٩.
- حجازي، فايزة عبدالرحمن، أهل الذمة في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، أربد، الأردن، ١٩٨٧.
- خماش، نجدة، الإدارة في العصر الأموي، رسالة ماجستير جامعة دمشق، دمشق، سوريا، ١٩٧٨.
- زنيد، خالد أحمد سلمي، التجارة في بلاد الشام حتى نهاية العصر العباسي الأول، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن،

١٩٩٢.

- نجيب، عامر، استقرار القبائل العربية في بلاد الشام في صدر الإسلام، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، ١٩٩٤.

ج: دوائر المعارف

- دائرة المعارف الإسلامية، أصدرها بالإنجليزية والفرنسية والألمانية، أئمة المستشرقين في العالم. ويشرف على تحريها الاتحاد الدولي للمجامع العلمية، النسخة العربية، إعداد وتحرير، إبراهيم خورشيد، وأحمد الشنتاوي، وعبدالحميد يونس، دار الشعب، القاهرة، د.ت.
- الموسوعة الفلسطينية، إصدار هيئة الموسوعة الفلسطينية، ٤ج، دمشق، ١٩٨٤م.
- Encyclopedia Britanica. 15 th Edition.

٢: كتب لمجموعة مؤلفين

- حسين، فالح، مشاركة العناصر غير العربية في الجيش والإدارة الأموية، دراسات مهداة إلى عبدالعزيز الدوري نشر المكتبة الوطنية، عمان، ١٩٩٥.

-٣ الدوريات

- البستاني، فؤاد أفرام، دور النصارى في اقرار الخلافة الأموية مجلة المشرق، العدد١، ١٩٣٨، بيروت.
- البطاينة، محمد ضيف الله، العلاقة بين نصارى العرب وحركة الفتح الإسلامي، مجلة المؤرخ العربي، العدد ٢١ نشر اتحاد

المؤرخين العرب، بغداد، العراق، ١٩٨٢.

- حسين، فالح، استعمال العربية في الدواوين المالية قبل عبدالملك بن مروان وبعده، مجلة دراسات تاريخية، العددان ٢١،٢٢ الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، ١٩٨٦.
- حسين، فالح، العشور (ضرائب التجارة في صدر الإسلام) مجلة دراسات تاريخية، عمان ١٩٨٨.
- الدوري، عبدالعزيز، نشأة الإقطاع في المجتمعات الإسلامية مجلة المجمع العلمي العراقي، مج ٢٠، بغداد، ١٩٧٠.
- الدوري، عبدالعزيز، في التنظيم الاقتصادي في صدر الإسلام مجلة العلوم الاجتماعية، جامعة الكويت، الكويت، ١٩٨١.
- السيد، رضوان، العلاقات الإسلامية المسيحية، مجلة الاجتهاد، السنة السابعة العدد ٢٨، دار الاجتهاد، بيروت، ١٩٩٥.
- دويدات، حسين، أهل الذمة في العصر الأموي، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية، العدد ٥، دبي، الإمارات العربية المتحدة، ١٩٩٢.
- لامنس، هنري، المذكرات الجغرافية في الأقطار السورية، مجلة المشرق، مج١٠، بيروت، ١٩٠٧.
- لامنس، هنري، لماذا افتتح العرب سوريا، مجلة المشرق، مج٣، بيروت، ١٩٣٢.

٤: وقائع المؤتمرات

- إبراهيم زيد الكيلاني، المراسلات النبوية مع بعض القبائل العربية

في جنوبي بلاد الشام، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، الندوة٢، عمان، ١٩٨٧م.

- جورج عطية، الأثر السرياني في الحياة الفكرية في بلادِ الشام المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، الندوة الأولى عمان، ١٩٨٧م.
- حسين، فالح، الفروض العينية، الضيافة والأرزاق كمصدر لتمويل جيش الفتح، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، الندوة٢، عمان، ١٩٨٧م.
- الحمارنة، صالح، المسيحية في أرض الشام في أوائل الحكم الإسلامي، المؤتمر الدولي الأول لتاريخ بلاد الشام، عمان، ١٩٧٤م.
- خريسات، محمد، دور العرب المتنصرة في الفتوحات في بلاد الشام في صدر الإسلام، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، الندوة، عمان، ١٩٨٧.
- درادكة، صالح، مقدمات في فتح بلاد الشام، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، الندوة٢، عمان، ١٩٨٧م.
- القاضي، وداد، مدخل إلى دراسة عهود الصلح الإسلامية زمن الفتوح، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، الندوة٢، عمان، ١٩٨٧.